جسدُ السرد.. قصص قصيرة

كتاب قنّاص

eBooK

جسدُ السرد

(قصص قصيرة)

الكتاب: جسدُ السرد.. قصص قصيرة

جميع الحقوق محفوظة لمنصّة قنّاص الثقافيّة

2024

منصّة قنّاص: كتب رقمية

info@qannaass.com

advertise@qannaass.com

twitter.com/QannassMagazine

facebook.com/QannassMagazine

instagram.com/qannaasss.magazine

التصميم الرقمي والتنسيق والتنضيد: عماد الدين موسى

تصميم الغلاف والتحرير: زاهر السالمي

شركة مِداد للصحافة والنشر والاعلان والتسويق

مسقط، سلطنة عُمان

الرئيس التنفيذي، الناشر، والمحرر المسؤول: زاهر السالمي

تنشر مِنصة قنّاص الثقافية ضمن مشروعها (كتب رقمية)؛ قصصاً قصيرة في مجموعة واحدة، علما بأننا قد نشرنا هذه القصص منفردة في أعدادنا السابقة، وذلك حتى نتيح للقارئ العزيز، الذي رافقنا منذ البدايات، كِتابا يحتفظ به ويعود له متى شاء، في صيغة تواكب العصر وتثري المكتبة العربية.

مجموعة القصص القصيرة هذه؛ جاءت من كُتّاب يقطنون الكوكب ودون مَرْكز، في الوطن أو المهجر. كُتّاب حفروا اسمهم ابداعا عبر سنين، وأثْروا مِنصة قنّاص بأعمالهم، وكُتّاب شباب أقلامهم فتنة المشهد الأدبي المعاصر.

هذا الألَقُ الإبداعي؛ هو ما نتشاركه في مساحة قنّاص.

الفهرس

- عبد الهادي سعدون:

الرجل الذي باعني دون كيخوته.....8

- وفاء الحوسني:

آلة الكتابة.....14

- فراس سليمان:

أربع قصص قصيرة.....17

- سهام الوادودي:

العجوز والقارب.....20

- حليم يوسف:

الرجل الذي يبحث عن ذيله.....26

- ممدوح عبد الستار:

السدود.....34

- باسم سليمان:

أجمة القصب.....38

- رجاء عبد الحكيم:

عواء الذئاب.....44

- هاني السالمي:

مشاهد لا تشيخ في عقلي.....48

- إلزا تصره:

الجدار.....51

- شيرين صالح:

مرايا العدم.....54

- حسام سالم:

منطقة الأمان.....59

- فتاح شيخي:

بقع حمراء في الضباب.....61

- محمد بيجو:

روحي تحترق.....63

- حمزة الذهبي:

عندما صرت جرذاً.....66

- نور صلاح الدين:

حياة البرزخ.....،.....76

- فتحي البوكاري:

وللمهمشين نصيبهم من الحياة.....85

- شيماء يوسف:

اعترافات امرأة أربعينية في محطة قطار.....90

***

عبدالهادي سعدون*

الرجل الذي باعني دون كيخوته

كل الأماكن في مدريد تذكرني بالنساء، إلا مالاسانيا.

حدث لي أن تعرفت على حي مالاسانيا ربما في سنتي الثالثة من وصولي إلى مدريد، نهايات التسعينيات «تاركاً بغداد أبعد قليلاً مما كانت عليه» كما قلت في قصيدة قديمة لي (دون رغبة بالعودة لدفتر الذكريات البعيدة متعكزاً على النسيان الرحيم لما عانيته في بلدي)، وذلك بالتعرف على مدريد وأحيائها والتجوال بلا هوادة كل اليوم من مكان إلى آخر كبدوي عطش لأنوار مدينة لم يمر بمثلها. ثم أخذت حرفياً بنصيحة عربي عتيد (كان يسمونه عمدة المنفيين العرب) تعرفت عليه في أحد المطاعم المغربية، وعندما وجدني أتلكأ بالإسبانية وأداري خجلي بالتلفت والانزواء بعيداً عن الأعين، بأن أسَرّني (بعد أكْلة كسكسي دسمة) قائلاً: «أنت في مدينة مفتوحة، حرام عليك أن تغلق على نفسك. ها... ولن تتعرف عليها إلا بمعرفتك نسائها. القبلة والفراش مفتاح لانطلاقة لسانك». وأنا بدوري تعلمتها منه حرفياً، وفي كل مرة أحاول فيها، أجدني وقعت في غرام أجنبية مثلي ولا أمل لي بإسبانية مدريدية، كما الحال مع صديقتي الأخيرة، بلغارية الجنسية، طالبة ماجستير مثلي عرفتها في كورس دراسي عن رواية أميركا اللاتينية المعاصرة وكلانا كان شغوفاً يرميديوس رائعة الحسن التي طارت مع الشراشف في يوم عاصف من مائة عام من العزلة. وتطورت علاقتنا إلى ما يشبه زوجين غريبين في بلد غريب يسند أحدنا الآخر، دون أن أنسى أو تهزمني فكرة التعرف على إسبانية في كل خروج لي من البيت، وهو ما كانت تدركه صاحبتي وتراقبني بحدة فيما لو لعبت بذيلي أو حركت طرف حاجبي تغزلاً بمؤخرة امرأة.

كانت الفكرة فكرتها، اتصلت بي وقالت إنها تريد أن نلتقي ذلك اليوم في مالاسانيا، في ساحة ٢ مايو تحديداً. كنا نعيش منفصلين كل واحد منا في شقة في حيين بعيدين، وكنا نلتقي تقريباً للهو والحب نهايات الأسبوع كتقويم مقرر وموافق عليه من قبلنا. لم أكن قد سمعت بعد بـ مالاسانيا، بل حتى انني استغربت ولم أفهم مُرادها. كررتها عليها بلهجتي البغدادية ومفرداتي الإسبانية الفارطة Mala Seña مالا سينسا.. وأين يمكنني العثور عليها؟) تساءلتُ بِغباء وبلا معرفة حقيقية. ضحكتْ واخترقت قهقهاتها أذني الملتصقة بسماعة الهاتف، لتنتهي بأن أسمعها تبلع لكنتها بلعاً لطيفاً لتقول لي أخيراً: «لا تهتم أيها المغفل الجميل، هناك سيئون كثر سيرشدونك للمكان». تركتني في حيرتي بعد أن اتفقنا على

أن نلتقي على الثامنة مساء اليوم نفسه. كان يوم جمعة مشمس ورائع، وكنت أنتظره بشراهة بعد أسبوعين من الصيام الفراشي.

وصلت الساحة قبل وصول صاحبتي بأكثر من نصف ساعة كعادتي ولخشيتي من عدم معرفة الوصول في الوقت المحدد، فكان أن وصلت باكراً ووجدتني وسط الساحة جالساً في أحد مقاهيها الخارجية متفرجاً على عالم (الهرج مرج) الصاخب وشارباً بيرتي المثلجة بعد عناء وتساؤلات عديدة حتى استطعت الوصول إلى مالاسانيا التي لم تكن (مالا سينيا/ الإشارة السيئة) كما فكرت وضحكت مني صاحبتي وكل من سألتهم بعد ذلك دون أن يصحح لي أحدهم الاسم وكأنهم استخفوا بي أو اعجبتهم لعبة لساني المعوج.

كنت كمن فطم من لعبة التفرج وقد أعادوه إليها، بحيث أنني لم أكن أفطن لشيء يحدث في الساحة إلا ويجذبني شيء آخر، هكذا بلا تحديد ولا نهاية متوقعة. كنت أتفرج وأبتسم وأفرح لكل ما يحيطني وكأنني قد وجدت مكاني أخيراً في مدينة شاسعة مثل مدريد. في تلك اللحظة تماماً وأنا أرفع كأسي لأدلق البيرة في كرشي المطمئن لليلة هانئة مريحة، سمعته يسألني فيما لو أرغب بالحصول على (دون كيخوته)؟

لم أميز مِنه وأنا ألتَفت لجهة تلك الجملة المغرية غير هيئة شاب مزركش الثياب الواسعة تهفهفُ مع النسيم، وقد صبغ وجهه بكل ألوان قوس قزح المعروفة وقد صنعَ من شعره كتلة منتصبة أشبه بعرف ديك هراتي بلون أحمر صارخ.

. قبل أن تجيب على سؤالي، هل تسمح لي أن أرافقك لبعض الدقائق؟ سأطلب بعد أذنك بيرة لي وسَأشرح لك طبيعة (دون كيخوتة) الذي أبيعه!

لأكن دقيقاً بشرح المسألة، طوال جلوسه معي كنت منوماً أتمعن به وبكلماته، ولا أتذكر أنني قد شاطرته الحديث سوى بهزة رأس أو ابتسامة. أما البقية فكانت من نصيبه إذ لم يتوقف عن الكلام وهو يحدثني عن الساحة وأنه هو وأصحابه الذين يحتلون مالاسانيا من المساء إلى الليل سيخرجون عاجلاً أم آجلاً لنصرة المظلومين في أية لحظة قادمة، «تماماً مثل الدون كيخوتة؟.«

. تعرف أنني ما إن لمحتك تدخل الساحة، قلت مع نفسي هذا الغريب المتلفت لا يعرف عن مالاسانيا وأسرارها إلا القليل. لذا اقتربت وتطوعت بدلاً من أصحابي الآخرين لأرافِقك

جلستك وأشرح لك كل ما ترغب به. ولكن قبل كل شيء لن تفهم كل ما يحيطك قبل أن أهديك لوحة خاصة بك مما أرسمه. وأي رسم هو ذلك؟ الدون كيخوته، فارسنا الحزين الطلعة مثلك، المقاتل الذي يهابه الفرسان مثلي، المتعطش للعدالة كاسر قلوب العذارى ومحطم نظرات الأميرات وسيدات القصور... أنظر ليدي... راقب أصابعي وهي تنحت لك هذا الوجه النبيل دون أن ينقصه بالطبع تابِعه وصاحبة ومرشد خطواته سانشو الطيب الحكيم... ولكن تمعن بما أعمله، رسمي لا يشبه أي رسم آخر!

ثم فَرَد على الطاولة عدّته بضربة ساحر، فكان أن امتلأت بالأوراق والألوان. ثم أمرني أن أتمتع بمنظر الساحة دون أن أحرك رأسي ذات اليمين وذات اليسار حتى يستطيع تجسيد هيئتي في رسمه. أخبرني أن رسمته خاصة بكل واحد وهي تختلف عن رسمة الطاولات الأخرى، وهو يجتهد بذلك حتى لا يكون مزيفاً ببيع (الدونكيخوتات) المتشابهة. وراح يدندن بأغنية راقصة وهو ينثر ألوانه على الورقة بينما أصابعه النحيلة تمضي بِبصماتها المتلونة على البياض.

كنت في كل الوقت أراقبه، لولا تفاحة آدم في بلعومه وبحة صوته المشروخة لما شككت للحظة أنه من أجمل نساء العالم، بفم دقيق وأنف طويل قليلاً وجبهة واسعة مرتفعة ويدين نحيفتين فنّانتين. كان وهو يحرك أصابعه المصبوغة أستمع لرنين حلق أذُنيه الطويلتين اللامعتين مثل قمريْن متجاورين.

لم يتأخر كثيراً وكأنه قد حفظ الرسم في مخيلته، فعرضه عليّ وطلب مني الإنتظار. قام بشرب ما تبقى من بيرته، ثم نهض ليبدو لي مثل تمثال عملاق نحيل وبلباس طويل ينسدل على الأرض بما يشبه ذيل يرافقه في كل مسير.

بعد لحظات أخرج من حقيبته القرمزية كيساً أزرق اللون ومد يده اليمنى من فتحته ليستخرج ما يشبه الطحين الأسمر وراح يقرأ على سمعي تعويذة الفرسان في الجزء الأول من الدون كيخوتة وهو ينثر الطحين أو التراب أو الرماد على ورقة الرسم، فتختلط كلها وتغيب الملامح والخطوط. مع آخر جملة وهو يُعْلنني فارساً جوالاً مثل أغلب فرسان مالاسانيا المنتشرين سراً وعلناً في شوارعها وشققها وزواياها وشقوقها العصية، حمل الورقة ونفخ كجني

خرج تواً من مصباح سحري طارداً ما يعلو الورقة ليطير وينتشر على المناضد والحلقات ورؤوس الخلق الكثيفة وهي تحتل الساحة من كل جانب.

عندها فقط وبابتسامته التي تشبه ابتسامة حسناء خجول، سلمني رسمتي الخاصة مع قبلتين على خدي وهو يودعني على أمل أن نلتقي قريباً «لا تنسني أيها الملك العربي!». قالها وراح في مشيته المتلفّتة حتى أبعد زاوية في الخلف مني ربما مجرباً حظه مع المقاهي الأخرى.

بقدرة عجيبة وجدت بين يدي لوحتي الدون كيخوتية الخاصة بي: أنا بوجهي نفسه معتلياً روثينانته بوجه سمين وبطن منتفخة وخلفي سانشو له ملامح وجهي أيضاً بجسد نحيل كقصبة، وكلانا نسير في شارع مزدحم من شوارع بغداد التي تركتها خلفي وظننت أنني نسيتها.

شهقت ودمعت عيناي ولم أتحمل المفاجأة فعلاً. درت بلا وعي بحثاً عنه ولم أجده. غاب عن نظري تماماً.

لقد أختفى خلف حشد الطاولات المكتظة بالبشر من كل صنف، ولا بد أنه قد دخل في أحد الشوارع الفرعية بعيداً عن أنظاري. لكنني في دوراني بحثاً عن أثر له، حدث ما لا يمكن أن أتصوره أو يتصوره مصور احتفالات خبير. فجأة لمحت زوايا الشوارع المواجهة لجلستي وقد تفتحت مثل أفواه عملاقة لتطرح عاصفة عملاقة ملونة تتطاير بهيئة قطع ورقية من كل الألوان، يليها جموع من كل نوع وجنس ومِهَن يمكن تخيلها.

راحت غُمامة عملاقة تتقدم نحونا، نحو ساحة ٢ مايو، يقودها رجال ونساء يتلوون ويرقصون وينشدون على إيقاعات طبول أفريقية. ثم بضربة ساحر متمكن تحول كل شيء حولي إلى ما يشبه ساحة احتفالات كبرى: حوات أفاعي، بائعو حلوى ومشروبات، بائعو ورد، بائعو أطعمة، عربات مزركشة على متنها راقصات شرقيات، مهرجون، أكروبات، نساء بأزياء فكتورية، أندلسيات رشيقات بملابس لا تخطئها عين، غجر وشقر وسمر وسود وجواري ومخنثين وأقزام أو أطفال بدور أقزام، صباغون وأطباء ومُعلمون وكتبة وطبّاخون ووو، مُمَكْيَجون وبلا مكياج، عُراة وأنصاف عُراة وبِبدلات لعصور فائتة بعضها تعود لعصر محمد الأول باني مجريط وآخرون يقلدون الخنافس وفترة الجارلس وغيرها الكثير مما لم تخزنه

ذاكرتي.. ثم كانت الفرجْة الكبرى: انفتحت الغمامة البيضاء عن بائع الكيخوته ذاته وقد خلع عن جسده الدقيق زرقة ورق الألوان تلك التي جالسني بها قبل دقائق، ومضى إلى أبعد حد في زيه الشبيه بفارس الهيئة الحزينة. تقدم مني أنا شخصياً وهو يدور ويدور مثل درويش في حلقة صوفية. كان منشرحاً ومتفكراً رغم رقصه وهيجانه. كل شيء يدور حوله، حولنا. حولي أنا وكأن لا أحد معه غيري. ثم رأيتني أتبع الفارس الحزين، أدور بينهم ومعهم في رقصة الطبول، أحرك جسدي وأتمايل مثلهم تماماً، ميلان أظنه طال بي حتى الفجر. كنت تماماً مثل رسْمتِه تلك التي رسمني فيها أشبه سانشو بجسد نحيل أمضي خلفه هو بهيئة دون كيخوته سميناً مربرباً.

لا داعي أن أخبركم أن صديقتي البلغارية تلك طردتني من جنتها لأنها في الواقع قد حضرت للقائي ولمحتني من بعيد رفقة تلك المرأة المزوقة بعشرات الألوان الصارخة، فعادت أدراجها وظنت أنني كنت أغازل أخرى بغيابها. لم أهتم للأمر لطالما كنت متأملاً أن أقع بشِباك فتاة مدريدية، قطة أباً عن جد، وهو ما حصل لي فعلاً ولكن بعد سنين طويلة.

الحال أنني لم أعد إلى مالاسانيا إلا في مناسبات قليلة، وفي كل مرة كنت أشعر باهتزاز تلك الطبول يخض بدني وينقلني بين دخانها وناسها وشوارعها، غير أنني لم أر بعد ذلك اليوم صاحبي، الرجل المزركش الذي كان يبيع الكيخوته ذاك، والذي ما زلت أحتفظ برسمته الكيخوتية تلك كصليب يزين كل غرفي التي استأجرتها وعشت فيها في مدريد من شمالها حتى جنوبها. عليّ أن أعترف أمامكم الآن وبعد هذه السنين الطويلة، أن كل الأماكن في مدريد تذكرني بالنساء، ومالاسانيا أولها.

(*): كاتب وأكاديمي ومترجم عراقي مقيم في إسبانيا. أستاذ مادة اللغة والأدب العربي في جامعة مدريد المركزية. دكتوراه في الآداب والفلسفة من جامعة مدريد.

وفاء حمد الحوسني*

آلة الكتابة

(إذا كنت أكتب ما أحس فلأننى أخفض من حمى
الإحساس، ما أحكيه لا يكتسى أي أهمية تذكر)... بيسوا

في هذا القبو المظلم الرطب هجرني مالكي بعد أن قرر أنني لم أعد صالحة للكتابة، فأزراري بدت متهالكة وقد تقشرت معظم الحروف المكتوبة عليها وأصابها العطب حتى أنها لم تعد صالحة للقراءة، إلا أن هذا ليس سبباً كافيا لهجري فأنا أعرف أن صاحبي يحفظ أماكن كل حرف حتى وهي بهذه الحالة المزرية، ولا يمكنكم تصور وضع آلة رثة في مثل حالتي فقد أَلِفْتُ مالكي وأَلِفَني وأحزنني أن يتم التخلص مني بهذه الطريقة البائسة بعد أن تشاركنا معًا حياة كاملة. كنت تلك الوصلة الرفيعة التي تربطه بمخاوفه وهواجسه، عرفت أدق خباياه حتى تلك التي لا يجرئ أن يُفصح عنها. فرغم أنه كان يكتب بضمير الغائب أو كأنه ذات غائبة، فأنا أعي أنه يكتب عن نفسه ليس إلا. نفسه بصيغ كثيرة ومتعددة. كان بطريقة ما في خصام دائم معها، لم يكن صريحاً معها أبدًا. لذلك دأب على أن يكتبها بهذه الطرق الملتوية. كانت هذه طريقته في الوصول إليه. ولأنه كان يحس أنه غريب عنه قرر أن يعيد اكتشاف أُلْفَتِه عن طريق الكتابة. في ذلك اليوم الذي قرر فيه أنني لم أعد أكثر من آلة صدئة. إذ أنه جردني من شاعريتي التي أكسبني اياها. فلكي يسهل عليك التخلص من شيء ما ليس عليك سوى أن تجرده من ألفته وحميميته بعدها سيسهل عليك أن تهجره كما لو كان أمر لا قيمة له البتة.. أذكر أنه لم يكن كما هو كان كأنه شخص آخر. شخص آخر تَلَبَّس ملامحه وألقى بروحه في أحد المكبّات. هذا ما تهيئ لي حينها. أدركت في تلك اللحظة أنه لا يمكن أن يعود أبدًا. فشيء من روحه ليس في مكانه المعتاد. لم يقل شيئًا يومها، تقدم ناحيتي بهدوء ثم تناولني كما يتناول أي خردة فألقى بي في هذا المكب. ليته فقط منحني آن ذاك كما يمنح أشياءه الأخرى شيئًا من الاعتراض ونوعا من الشكوى إلا أنه أخرسني هكذا إلى الأبد. وأخرس كل الأشياء من بعدي. وكأنه انتزع الأبواب والنوافذ والردهات من مكانها واستبدلها بكيانات جديدة. كيانات جامدة مملة لا تحلم ولا تتأمل. وكأن فكرة المكان انْتُزِعت بكاملها وغدا فارغًا من شاعريته الأولى التي مُنحت له. وكنت بطبيعة الحال جزءًا من شاعرية ذلك المكان ومن المؤكد أنني أنا الأخرى انتزعت فكرتي وأصبحتُ فارغة كما هو. وصرت أفكر هل كنا مجرد أشياء له يمنحها عاطفة ثم يجردها منها في أي وقت يشاء. وأحزنني فكرة أن أكون شيئًا مهملاً كهذا.

إننا جزء من مزاجه فحسب وأفكاره العابرة جزء من كيانه المتغير إلا أن المرء يرتبط بالحياة بهذا الجزء المتقلب منه حتى أنه قد يرتبط بها بطريقة مرضيّة فالتعلق يكون أقرب إليه من فكرة التخلي وكان مالكي أقرب إلى فكرة التعلق من فكرة التخلي هذه. حتى أشيائه القديمة لم يكن يتخلص منها كان يعتبرها جزء من روحه تلك وخريطته الممتدة. فكيف يتخلى عن فكرة التعبير تلك!

كان شغوفًا بها.. كان يكتب كثيرًا عن كل شيء تقريبًا عن النوافذ والمرايا وحجرات الانتظار، يبعث الحياة في أشد الأشياء سكونًا عن شجرة وحيدة في تل منعزل وقلم منسي في أحد الأدراج العلوية وكتاب مهجور لكاتب مغمور، كان لا يتكلم إلا بلسان الأشياء نفسها لأنها في تصوره أكثر ما يمثل قصص أصحابها.. أراد أن يري الحياة من زاوية أخرى غير التي ألفها أن يعيد اكتشاف الأشياء مجددًا بطريقته هو فأعطاها صوتاً وشفتين ومخيلة خصبة لتعبر بها عن حالها بل وأعطاها فضولاً أيضًا وقدرة على الاعتراض، منحها كل ما يمكن أن يمتلكه انسان ما بطريقة ما أعاد أنْسَنتها لتعبر عن أحلامها وهواجسها وفي نفس الوقت أراد أن يجعلها امتداد له، لتلك المخاوف التي تسكنه والآمال التي تراوده فإن مَثُل فيها فهو لم يتمثل فيها إلا روحه هو فقد جعلها مرآة لروحه المضطربة وكأنه أراد أن يعكس نفسه في أشياء كثيرة عله يستوضحها بطريقة أعمق. كانت الأشياء وسيلة بالنسبة له حتى يتعمق أكثر في ألمه. كان فقط شخصاً خائفاً في أن يظل بمواجهة هذه المخاوف إلى الأبد. فأعطاها هذه الصبغة الشعرية. لم يكن بإمكانه أن يخرس تلك الحياة التي كان يختنق بها لذلك قرر أن يُجَمّلها أن يجعلها مؤهلة أكثر فكانت الكتابة بالنسبة له نوعاً من المسالمة وبتعبير أدق هدنة مؤقتة يكافح بها بؤسه. إلا أنه إذ أصبح يرى المكان الذي ألِفَه انعكاس لتلك المخاوف ليس إلا فقرر هجره وهجر كل شيء يَمتُّ إليه بصلة لعله ينسى أو تتوقف تماثيل تلك المخاوف عن اقتفاء أثره. ولأني أعرف أن المرء لا يمكن ان يقتطع حياته أو أن يتملص منها للأبد كنت أملك أملاً واهنًا في أن يعود مجددًا ويعود للمكان أُلْفَته السابقة.

(*): كاتبة عُمانية.

فراس سليمان*

أربع قصص قصيرة

لمبة

العجوز على الشرفة يذوب رويداً رويداً في كرسيّه الهزاز، يتذكر أشياء كثيرة، والأهم أنه يجب أن يغيّر لمبة الحمّام المحروقة منذ أسبوع، فاليوم سيصل ابنه. يتجه إلى الحمّام، يضع كرسياً، يقف عليه، يتزحلق، يسقط، يتهشم رأسه على طرف المغسلة. يموت.

مساءً. يصل الابن، و كي يحمل جثة أبيه خارجاً، كان من الضروري أن يغيّر اللمبة.

باب مفتوح

سمعت صوتاً يندهني، هه بني:

بيتي ليس بعيداَ. هل تساعدني في حمل هذه الأكياس. أجبتُ :طبعاً. أعنته في حملها، بعد أن وصلنا طلب مني أن أدخلها إلى المطبخ.

–اسمع بني، يبدو أنك شاب طيب. أنا مرهق ووحيد ومريض وضجر، ليس لدي الشجاعة لأنهي حياتي، حاولت مرات كثيرة ولم أستطع، أحتاج إلى مساعدة أحد ما. كل شيء مرتب، وصيتي موقّعة مع شرح واف لمسؤوليتي. هنا مسدس كاتم للصوت ومبلغ في الظرف لقاءَ خدمتك. إن وافقت ستكون قد قدّمت لي خدمة عظيمة.

فكرت بأن أقول له كم من العبث الإقدام على فعل كهذا. ولكن بينما أنا أستمع إلى ما يقوله بصوت بطيء مرتجف، خطر لي أنه من الأفضل أن أستجيب بطريقة مختلفة. ألقيت بجسدي على الكنبة وأخذت نفساً عميقاً. بدأ العجوز يفقد صبره، قال بني لستَ مجبراً، أجب بنعم أو لا. قلت: انظرْ أيها السيد، أفهمك تماماً، وليس لدي مشكلة في إنقاذك برصاصة واحدة. لكن قبل أن أقوم بذلك. أود سؤالك إذا كان لديك مسدس آخر. مندهشاً أجاب العجوز: نعم ،أظن أن لدي واحداً آخر، لكن لماذا؟ قلتُ: لدي فكرة. ببساطة أنا أقتلك وأنت تقتلني في نفس اللحظة. حياتي أيضاً خالية من أي معنى، ومنذ وقت طويل وأنا أفكر بإنهاء حياتي لكن لا أعرف كيف. العجوز لم يتردد وعلى الفور. لا لا لا لا... بني. أنت مازلت فتياً والحياة أمامك. قلت: خذ وقتك وفكّر بالعرض، وسأعود لأراك بعد أسبوع تماماً، وفي نفس الوقت ،الثلاثاء القادم. وغادرتُ.

عدتُ بعد أسبوع في الموعد المحدد، طرقتُ الباب مرات ومرات وبقوة، ليس من رد. أدرت أكرة الباب ودخلتُ، عاينتُ البيتَ كله لم أر أحداً، وجدت ورقة على الطاولة مكتوباً عليها بخط كبير ومرتجف: (تركتُ لك الباب مفتوحاً).

حارس التمثال

طُردَ، وجدَ نفسه في ساحة عامة، يجلس تحت تمثالِ لأسدٍ ضخم. كان متعباً نعساً جائعاً. فجأة ظهر رجل، قال قمْ يا قمامة وانقلعْ من هنا، إنك تلوث قدمي الأسد العظيم. الفتى أشبه بخرقة، بكومة عظام خرجت من تابوت. حاول أن ينهض لم يقوَ، صفعهُ الرجلُ حارسُ التمثال. سقطتْ الكومةُ عظماتٍ متفرقةً في مساحة مترين مربعين. كان يجب تنظيف المكان على وجه السرعة. الحشد خارج محيط التمثال المسور يتفرج ويصوّر، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب. كنت واحداً منهم. لم أفهم كيف تشجعت وركضتُ قافزاً فوق سلاسل السور لألملم عظام ذاك الكائن. فعلت ذلك بسرعة وسطَ ذهول الجميع وركضتُ. ركضت. وورائي قطيع بكاميرات تلفوناتهم المحمولة يتبعني. سقطتْ أكثر من عظمة في الطريق. كنت حزيناً أكثر مني خائفاً أركض وأفكر كيف لي أن أعيد تشكيل هذه العظام. لكن وبعد دقائق قصيرة طوييييلة بدأ إطلاق الرصاص عليّ. أُصبت وقُتلت. والراوي الذي بدأ في سرد ما حدث منعه الرعب من أن يكمل القصة.

حب

قررت العجوز أن تسمّي الأدوية الكثيرة على الطاولة الصغيرة قرب سريرها بأسماء أقاربها وأصدقائها الذين ماتوا، يومياً تتناول ملعقة من هذا وحبّةً من تلك، أمس حدّقتْ طويلاً بالعلبة التي عليها اسم زوجها. ثم تجرّعتها كلها موقنة أن أحداً لن يستطيع إيقاظها.

(*): شاعر وكاتب سوري. ولد في طرطوس سوريا ١٩٦٩ يقيم الآن في نيويورك.

سهام الوادودي*

العجوز والقارب

كنت في السادسة، وكنت أسير بجانبه إلى قرية الصيادين ممسكة بيده الخشنة كمن يحكم قبضته على درابزين من الحديد السميك الراسخ. كنت في السادسة وما شعرت يوما أنني أقل من أميرات الأساطير والحوريات، لأنه صنع لي من قلبه عرشاً وطفق يقص لي حكايا إمسوان الماتعة الأخاذة. كنت في السادسة، ولم أتخيل يوما أن مكروها يصيبه أو حتى يدنو منه، فهو الخارق الذي يحملني بيد واحدة ويفتح أمامي بدفعة أصبع أبوابا ظننتها محكمة الإغلاق. ولو أن الأرض اهتزت وتصدعت ما كنت لأشعر بها طالما بقربه. نظراته لي شعاع سكينة لا يخبو، وعيونه تحتضن قلبي وتبرأه من كل المخاوف.

لم أكن أرى في حرفة الصيد التي يزاولها جدي إلا جولاتنا داخل البحر ونقاشاتنا اللذيذة التي توجز العالم في أساطير يسردها على مسامعي حكواتي آسر. ولم أكن أتنبه لما يصيبه من مشقة لأن بسماته الساطعة تبهرني وصوته الواثق الآمن يصم أذناي عما سواه. صوته الرخيم كان يختلط بهفيف الأمواج المتهادية ليبث السكينة في قلبي الصغير. مرارة الأيام التي كانت تتراءى لي بين حين وحين كان هو يرمي فوقها ستارا من العذوبة يحول بيني وبين جدار الواقع المظلم الذي كانت نظراتي ترتطم به من حين لآخر. سنوات طويلة والحياة تنهمر على وجهي كنسمات بحرية عذبة أغرق فيها وأغيب. غير أن فتاة أخرى كانت تكبر بداخلي، فتاة لم تعد تغريها الحكايات، فتاة انتصبت بداخلها الأسئلة كقضبان نار حامية.

ومرت الأعوام، وتراكمت بين يدي شهادات وبضع دفاتر سودتها على مقاعد التحصيل في مدرسة إمسوان، ثم سار بي حب العربية والشغف بكلماتها نحو المرحلة الثانوية لأرحل عن قريتي وأحط الرحال بسكن الطالبات في مدينة أجهلها وتجهلني. وشيئا فشيئا، شغلت القراءة وقتا كنت أقضيه مع جدي على القارب. وبدأت أتنقل من مجلد لآخر كمن يمشط أزقة المدينة يبحث عن أهله ومن يحب.

وأخذت أراكم الكتب كما تراكم النحلة رحيق الزهور لتصنع منه عسلا زلالا سائغا. وفور نهاية الدراسة، وخلال العطل وكلما توفر لي وقت شاغر، كنت أذهب لملاقاة شخصيات تمسكني من يدي وتطوف بي على مدار المعمور. وفي غرفتي الصغيرة في المدرسة الثانوية، القابعة في

ضواحي مدينة الصويرة، بعيدا عن قريتي إمسوان، لم أكن أشعر بالوحدة، لأنني جمعت أهلي وعشيرتي وطوقت نفسي بهم. وفي آخر الليل، حين تنطفئ الأضواء في سكن الطالبات، كنت أغفو محاطة بالكتب، لأن كتبي منارات مزروعة في محيط الحياة تضيء لي ما خفي من دروبها ومسالكها الوعرة. والعجوز والبحر لإرنست همنغواي واحدة من هذه المنارات. ولكن هل من سبيل إلى تسلق شجرة شامخة تسمو فوق نظيراتها، وتسمو، وتسمو لتبلغ عنان السماء؟ أو ليس الأمر تهورا ما بعده تهور؟ على العكس، لأن القراءة تجرؤ على الدوار، وعلى المرء أن يقرأ كمن ينحني منبهرا أمام عبقرية تنقشع فجأة لتنير كل شيء من حوله.

كان جدي أول العظماء في حياتي. وقابلت بعده كثيرين، وأعجبت بالعديد منهم، لأسباب مختلفة. لكن أحدا منهم لم يمسح دموعي كما فعل هو. ولم يطرد أحد كوابيسي كما فعل هو. ولم ينحت لي أحد مجدافاً ويعلمني التجديف كما فعل هو. ولم يأخذني أحد للصيد كما فعل هو. فمن بين كل العظماء الذين دخلوا حياتي، وحده جدي كان كبيراً بما يكفي ليخبرني عما يوجد هناك، خلف السماء، عندما استبد بي الفضول وسألته:

- قل لي، ما الذي يوجد خلف السماء؟
- هل تتذكرين حلمك؟
- أي حلم؟
- الحلم الذي حكيته لي ذلك اليوم؟
- فأحكي له شيئا ما
- لا ليس هذا الحلم، الآخر كان أجمل
- وأحكي شيئا آخر
- لا، الآخر كان أجمل بكثير

ثم يستمر على هذا المنوال إلى أن أحكي له في النهاية حكاية ملؤها السعادة والفرح. حينها تتغير قسمات وجهه، فيرفع إصبعه إلى السماء ويقول: هذا هو الذي يوجد هناك، جميع أحلامك

موجودة في الحقيقة وهي تنتظرك خلف السماء. وإذا حافظت عليها وتذكرتها طوال الوقت، ستتحقق وتصبح واقعا تعيشينه كل يوم. ولكن إياك ونسيانها، وإلا فلن تكبري. لأن من ينسى أحلامه لا يكبر أبدا.

- وأنت، هل تتذكر أحلامك كلها؟
- ليس كلها، أجملها فقط
- قصها علي، قصها علي، أرجوك
- حسنا، حينما كنت صغيرا، في قارب والدي، كنت أحلم بأن أصير أنا أيضاً صيادا عظيما.
- ولم تنس حلمك أبدا؟
- أبدا، أنظري، اليوم أنا أملك قاربي الخاص
- وبم كنت تحلم أيضا؟
- بأن أعلم حفيدي مهنة الصيد
- إذن؟
- إذن ها أنت ذي، حفيدتي المزعجة. أنت ولدي الصغير

كنا نضحك بحرارة. وفي القرية، كان الكثيرون يندهشون لرؤيته يأخذني للصيد. ويقولون بأنها ليست حرفة للفتيات. فيجيب هو: لم لا تذهب الفتاة للصيد ما دامت تأكل السمك. وعلى الرغم من نبرة كلامه المعتدلة الهادئة، فإن جدي كان يرشق الكلمات رشقا. لم أكن أعرف حينها كلمة النسوية. ولم تكن ضمن مفرداته أيضا، لكنني كنت أسعد برؤيته يقف إلى جانبي ويبقيني كبحّارة. فمحاوراتنا في عرض البحر أثمن عندي من كنوز الدنيا وما فيها. ثم إن جدي كان يصر على معاملتي ولو مجاملة مثل أي بحّار متمرس

فبينما كان هو يرفع الشباك، كنت أنا أتكفل بذراع الدفة. ولم تكن ليدي الصغيرة أن تحكمها كل الإحكام، ولم تكن المرساة تتصل بالقاع فينجرف القارب ببطء إلى الجانبين، ولكنني كنت أقاوم بكل قواي. وأسمع جدي يقول لي: تهانينا أيها القائد! فينفتح قلبي وتلج إليه الكلمات كشعاع ضوء ينتفخ به صدري وينتصب له كتفاي.

كان يرسي قدميه جيدا على أرض القارب، وينحني بجسمه السميك ليحكم قبضته على الشباك. يا كريم! ثم يدير جسده رافعاً كتلة الصيد، منتقلا إلى الوراء، وجسده العنيد يئن تحت الحمل الثقيل وخطواته المضطربة تخطئ أحياناً هدفها فيوشك على السقوط. يا كريم! كنت أجلس في مؤخرة القارب، أتأمل هذا العرض الذي يتكرر منذ قرون. لكن المعركة التي كان يقاتل فيها جدي كانت تمسني أكثر من كل المعارك التي دارت قبلها في نفس المكان. كان جدي فرحتنا، لياليا الهادئة، خبزنا اليومي الذي كان يستخلصه من الأمواج. يا كريم! لقد كان جدي فارسي المغوار، وكنت أراقبه بحماس جارف، وأدقق النظر في كل ما يقول وكل ما يفعل.

ومع كل إطلالة شمس، كان جدي يبذل من الجهد قدر ما بذله في اليوم الذي سبق. وحين كنت أسأله: هل تعبت؟ هل تشعر بالألم؟ كان يلتفت إلي باسماً ويقول: إنها الحياة. لم أره يوما يشتكي أو يتأفف. ولكي أبدي له إعجابي بعظمته، كنت أسأله لأعبر له عن سعادتي بالعيش في كنفه وتحت ظله، متذرعة في ذلك بسؤال أجابني عنه آلاف المرات:

- وتحت الماء، ما الذي يوجد تحت الماء؟
- الكوابيس: عندما ترين كابوسا، وفور استيقاظك، خذي صدفة وقصي عليها ما رأيته، وبعد ذلك ارمي الصدفة في البحر، فلا يعود الكابوس ليطارد منامك. ولكن حذار، فتحت الماء توجد أيضاً الكثير من الطيبات. أنظري، ثم يشير إلى كتل السمك الذي كان يرتجف في أرضية القارب، تأملي جيداً كل الخيرات التي يمن علينا بها الرزاق.

كنا نعيش على شبه جزيرة، ونقتات من البحر. حياتنا بسيطة تنزلق أيامها، بطيئة، رتيبة لا يخالف بعضها بعضاً مثل حبات سبح طال بها الزمن بين أنامل عجوز هرم. ثروتنا، كل ثروتنا مسحوق الذهب الأحمر الذي كان يزين السماء عند الشفق.

لا يملك البسطاء إلا كبرياءهم، ونفوساً صقلها العمل الدؤوب. ولا يطلبون من الله سوى أن يظلوا واقفين على أقدامهم. البسطاء عموماً لا يطلبون شيئا من أحد، بل إنهم لا يتكلمون إلا لماما. وأنا طالما استفسرت عن سبب ذلك في صباي. والآن يبدو لي أن صمتهم حكمة، لأن الكلمات لا تزرع القمح، ولا تضع السمك في الشباك. صمتهم حكمة لأن كلّاً منهم يعيش كل يوم ما يمكن للآخر أن يقصه عليه. صمتهم حكمة، لأن الحقيقة يمكن أن تختزل في مجرد نظرة. ففي هذا المكان من العالم، وحده البحر يتكلم، ووحدها الأمواج، تناجي رمال الشاطئ. وقرية إمسوان تمتد في المحيط الأطلسي مثل خصلة هربت من شعر جميل. لكن جمالها لا يستوقف أحدا. لأن البحارة منشغلون عنها بمقارعة القوت. إنهم يَصبّون كل يوم عرق جبينهم وعضلاتهم داخل المحيط. ومثل خيمائي عنيد، لا يتوقف هؤلاء الأبطال يوما عن إضافة الملح إلى الملح.

واليوم، استعضت عن مجدافي بالحرف، ولكن قاربي ما زال يتمايل، منجذباً كدأبه إلى الأفق. وحين يحن قلبي لرذاذ الطفولة، يتوجه بي إلى المكتبة ليعثر فيها على شفائه: العجوز والبحر. حينذاك أفاجأ بصوت جدي في مسمعي واضحاً وهو يقول: لا حياة لمن لم يكن بحّاراً متمرسا

ربما لم أصبح متمرسة بعد، ولكنني ما زلت أبحر، ومهما كان علو الموج كبيرا لي اليقين بأن جدي لن يتركني وحدي. وكذلك همنغواي.

(*): كاتبة مغربية، أستاذة لغات، حاصلة على دبلوم الدراسات المعمقة في الأدب المقارن خاصة ما يرتبط بالأشكال السردية الهجينة في الرواية على ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

حليم يوسف*

الرجل الذي يبحث عن ذيله

ارتفعت قهقهة الرجل وهو يدفع ما طلب منه سائق التكسي صبري صالح. سحب حقيبته الكبيرة السائرة على دولابين صغيرين باتجاه المطار، وهو يلتفت ضاحكا بين الفينة والأخرى. كان الرجل الأنيق فخورا بذيله السميك الذي يغطي مؤخرته، والذي يحمل لونا شبيها بلون ربطة العنق التي ترتاح على بطنه الكبير. اختفى الرجل في مدخل المطار ضاحكا، فيما بقي صبري صاحب التكسي، هذا هو الاسم الذي غطى على اسمه الحقيقي، حائرا يفكر في سبب القهقهة الصادرة عن زبونه الأخير. ولم يفهم السبب إلا حينما امتدت يده إلى مؤخرته متحسسا ذيله الطويل. تفاجأ باختفاء ذيله الجميل ، أصابه الرعب، أخرج مرآة صغيرة من جيبه ووجهها باتجاه مؤخرته ليتأكد من وقوع كارثة اختفاء الذيل. إصفر وجهه عندما وجد المرآة خالية من أي ذيل. كان عاجزا عن التفكير في سبب هذا التحول الكارثي المفاجيء الذي طرأ عليه. من الصعوبة بمكان الاستمرار في العيش بلا ذيل في بلاد تغطي مؤخرات جميع سكانها الذيول. هناك فروقات كثيرة بين ذيل وآخر، ذيول مختلفة الأشكال والألوان والأحجام. يتسابق الجميع على الاهتمام بذيولهم، وعلى تجميلها وتشذيبها وتغيير قياساتها، إلا أن خلو الجسم من حمل الذيل عار لا يمكن القبول به، ولا يمكن لمن لا ذيل له رفع رأسه بين الناس في هذه البلاد التي أصبح الذيل رمزا للعيش الكريم فيها، وفقدانه يستوجب التوبيخ والعزل والتعرض لأقسى العقوبات من قبل الناس قبل الجهات الرسمية، الحكومية والقضائية. تنفس الصعداء عندما وجد نفسه وحيدا في الشارع وما من أحد يراقبه في تلك اللحظات وصعد سيارته التكسي كلص خائف من أن يقبض عليه بالجرم المشهود. اطمأن إلى أن أحدا ما عدا الزبون الذي غادره ضاحكا لم يجده دون ذيل. في الطريق إلى البيت فكر بزوجته التي كانت خائفة طوال الوقت على أن يفقد أحد من أفراد العائلة ذيله وخاصة هو أو ابنه الذي يتهيأ للزواج. وتدعو الله أن يحمي حياتهم ويحفظ لهم ذيولهم إلى آخر العمر. عاد متأخرا إلى البيت لعل وعسى يؤجل مناحة زوجته إلى يوم غد، إلا أنه لم يفلح في ذلك، إذ رأى زوجته تنتظره على الباب لدى دخوله. قابلته زوجته بسؤال مفاجئ:

–لماذا لا ترد على التلفون؟ سأدفع نصف عمري لأعرف أو أفهم سبب امتناعك عن الرد على مكالماتي.

قبل أن يجاوب على سؤالها الصعب، انتبه إلى أنه قد أغلق هاتفه الخلوي منذ بدء اكتشافه لاختفاء الذيل اللعين بشكل مفاجئ ودون سابق إنذار. رغم أنه تجنب الالتفات أمام زوجته أو إدارة ظهره لها، إلا أنها ركضت إليه وهي تمسكه من ذراعه وتحدق في مكان الذيل الفارغ في أعلى المؤخرة مباشرة:

– أين ذيلك يا مسكين؟

وانقلب غضبها إلى نحيب وهي تضرب وجهها بيديها نادبة حظها التعيس:

– يا رب، كيف سأرفع رأسي بين الناس بعد اليوم، يا للعار، يا للعار، زوج بلا ذيل.

لم تعطه الفرصة ليوضح لها بأن كل شيء حدث فجأة ودون أن يشعر بأي شيء، وأن ضحكة ذلك الزبون المشؤوم الذي أوصله إلى المطار هي من جعلته يكتشف هذا التغير الفجائي الذي طرأ عليه. وفكر بأن كل ذلك لن يغير من الأمر شيئا، وأن الفاجعة وقعت ولا مناص من التملص والهرب من الأمر الواقع. وبدأت زوجته بالرجاء منه لإخفاء الأمر عن ابنهما الذي خطب قبل فترة قصيرة بنتا يحبها بجنون، وصارحته بمخاوفها الكثيرة:

–أتعلم أن أهل البنت سيفسخون الخطوبة إذا سمعوا بوقوع هذه المصيبة التي حلت بنا هذا اليوم. معهم حق، كيف سيزوجون ابنتهم المدللة لعائلة كبيرها ومعيلها بلا ذيل. يا للكارثة، يارب ساعدنا يا رب.

وعندما لم تتوقف زوجته عن الاسترسال في سرد مخاوفها والذهاب بها شرقا وغربا، صرخ في وجهها منفجرا:

–إذا لم تتوقفي على الفور، سأخرج إلى الشارع في هذا الليل صارخا بأنني فقدت ذيلي وأبحث عنه، ليسمع الجميع ذلك وكي لا يبقى الأمر سرا وأن تصبح حكاية على ألسنة كل الناس على طول هذه البلاد.

هدأت زوجته بعد إحساسها بجديته في تنفيذ تهديده، خاصة أنها تعرفه جيدا، على أنه صبور وهادئ إلى أبعد حد ولأن له حدودا إذا ما تجاوزتها هي أو غيرها فانه ينقلب رأسا على عقب ويفقد السيطرة على أعصابه ويقوم بتصرفات لا يتوقعها منه أحد ممن تعود على هدوئه وعلى صبره وقوة تحمله. أحست الزوجة بتسرعها في الولولة والنحيب على أمر لا يد له فيه ولا ذنب له في كل ما حصل. وهو كان مذهولا ومتأثرا بالفاجعة أكثر منها، فاعتذرت من نزقها ومن فورة غضبها المفاجئة. وبدءا بالتحدث مع بعضهما بهدوء وبضرورة التصرف بحكمة لمواجهة تحديات المصيبة التي قد تودي بمستقبل ابنهما الوحيد وتوصل وضع العائلة إلى الحضيض. اتفقا على إخفاء الأمر عن الجميع قدر الإمكان، وقررت خياطة ذيل لزوجها تلك الليلة لكي يخفي هذا الفقدان الكارثي عن الأعين ريثما يجدا حلا جذريا للموضوع من خلال مراجعة الأطباء المختصصين والمستشفيات. كانا يعلمان بأن الذيل الاصطناعي الذي ستخيطه الزوجة الليلة لن يحل المشكلة، وأن كشف التحايل على السلطات وعلى الناس سيعرضهما إلى المساءلة القانونية وإلى العقاب. ولكي يقطع الطريق على الضائقة المادية فانه سيستمر في عمله كسائق تكسي، خاصة أنه عمل لا يضطر إلى إدارة ظهره إلى الناس ولن يفضح السر بسهولة. توجهت زوجته إلى ماكينة الخياطة منشغلة بصنع وخياطة ذيل لزوجها، فيما هو توجه إلى غرفة النوم. كان مرهقا، متعبا إلى أبعد حد، إلا أنه لم يستطع أن ينام. تمدد على فراشه، غطى رأسه باللحاف، أغمض عينيه، حاول تأجيل كل الأفكار المتصارعة في رأسه والغرق في النوم ليرتاح، لكنه لم يستطع. تحسس مؤخرته أكثر من مرة، لم يكن يستطيع جمع قواه وترتيب

أفكاره ووضع يده على تدرج ما لاختفاء الذيل من جسده، ابتداء من الاستيقاظ من النوم البارحة وانتهاء بالضحكة اللئيمة لذلك الزبون الذي كان أول من اكتشف حادثة الاختفاء المفاجئة. لم يحدث معه أي جديد اليوم، ولم يجد سببا مقنعا لحدوث هذا الأمر اليوم وليس البارحة أو الغد. تذكر موت أبيه الغامض و إختفاء الذيل عن مؤخرته بمجرد تحوله إلى جثة. عاش الأب طوال حياته بعيدا عن الاصطدام مع السلطات والأجهزة التي تسير أمور العباد والبلاد، ولا يتذكر أنه تشاجر مع أحد من جيرانه أو من أقاربه أو من أحد من الناس. عاش مثله مثل كل الناس في هذه البلاد المترامية الأطراف حاملا ذيلا على مؤخرته، يعمل ليل نهار لإعالة أفراد عائلته وتأمين احتياجاتهم المعيشية فقط. ولم يلفت الأب المسكين بال ابنه طوال عمره في الحياة، إلا أنه تفاجأ به مفقود الذيل في يوم مماته. في البداية شك في الأمر وظن بأن الذيول التي تحملها مؤخرات البشر في هذه البلاد تغادر الأجساد بمغادرة الأرواح لها، وأن الذيول تختفي وتموت بموت أصحابها. إلا أن الوقائع التي عايشها بعد ذلك اليوم كذبت هذه الظنون كلها، وتأكد بأن والده هو الوحيد الذي إختفى ذيله بمغادرة روحه لجسده النحيل. سنوات طويلة وهو يحمل هذا السر الشخصي لأبيه معه، ولأن أمه سبقت أباه في الرحيل، لم يتمكن من التأكد من حقيقة المسألة من أي أحد آخر. هناك احتمالان لا ثالث لهما، الأول هو حدوث أمر شاذ مع أبيه وهو أن الذيل قد إضمحل وذاب واختفى بموته فعلا، والثاني هو خلو جسد أبيه من أي ذيل حقيقي والعيش بذيل اصطناعي وقدرته الجبارة على إقناع الآخرين على أنه يحمل على مؤخرته ذيلا حقيقيا مثله مثل غيره من البشر الطبيعيين. تساءل بينه وبين نفسه فيما إذا كان ما حصل له يعود إلى سبب وراثي، فقد يكون الأب قد مر بالتجربة نفسها إلا أنه تدارك الأمر وبقي كل ما حدث معه سرا حمله معه إلى القبر. السؤال الذي طرحه على نفسه، إذا كان الأب قد نفذ بجلده ولم يتعرض إلى عواقب البقاء بلا ذيل في بلاد يعتبر فقدان الذيل فيه جريمة، فيما إذا تقصد المرء ذلك، ويعتبر بمثابة إعاقة يتوجب معالجتها على الفور فيما إذا تعرض المرء لها بشكل غير متعمد. عندما راجع الطبيب المختص، سألته الممرضة التي ظنت بأنه يحمل ذيلا حقيقيا وليس اصطناعيا، وقد أفرحه ذلك

وجعله فخورا بمهارة زوجته في صنع الذيول. إستغرب الطبيب من حالته النادرة وأمطره بعدد لا نهائي من الأسئلة المتعلقة بصحته الجسدية وبالوضع الصحي لأهله:

–هل حدثت لديكم في العائلة أمورا شبيهة بهذه من قبل؟.

جاوب صبري مرفقا أقواله بجملة، على حد علمي، بشكل دائم. أصر الطبيب على البحث عن السبب مبررا أسئلته الكثيرة:

–لا نستطيع أن نحسن التصرف مع النتيجة، دون معرفة السبب الذي أدى إلى هذه النتيجة.

وطرح سؤالاً لم يجد أي جواب له:

–كيف فقدت ذيلك؟ هل انكسرت أو انقطعت وسقطت منك، أم أنه قد إضمحل وتضاءل حجمه مع الأيام ومن ثم اندثر؟

حين رآه الطبيب عاجزا عن تقديم إجابات شافية لأسئلته الصعبة، توجه بدفة أسئلته إلى الناحية النفسية وبدأ يسأله عن الصدمات النفسية التي تعرض لها مؤخرا:

–هل تعرضت إلى ضغوطات نفسية مؤخرا؟

–طوال عمري أعيش تحت ضغط نفسي شديد.

لدى عودته إلى البيت تحدث إلى زوجته عن حيرة الطبيب من تشخيص حالته النادرة وعن إحتمال خضوعه إلى معالجة نفسية طويلة الأمد. ارتاحت زوجته إلى الفكرة وشجعته على ذلك، خاصة أن الابن العريس بدأ يشك في تحولات صحية سلبية طرأت على أبيه. ولم ينجح الأب بشكل تام في إقناع إبنه أن كل شيء على ما يرام، من خلال تجنبه

الاجتماع مع ابنه وجها لوجه إلا عند الضرورة القصوى. وحسم صبري الأمر بتقاسم وقته بين سواقة التكسي وبين جلسات طويلة لدى أحد الأطباء النفسيين. خاصة أن ذلك تزامن مع حملة إعتقالات واسعة قامت بها قوات الدولة ضد اللا ذيليين ورميهم كالعادة في غياهب السجون بانتظار محاكمات صورية قد تعقد أو لا تعقد. ومن خرج من السجون من هؤلاء حيا، كان يخرج وهو يحمل على مؤخرته ذيلا أطول وفق المقاسات المتعارف عليها لذيول المواطنين الصالحين في هذه البلاد المستقرة والهادئة. سنة و ستة أشهر مضت وهو يخضع لمعالجة نفسية مكثفة، شعرت زوجته بتغير جسدي يطرأ على زوجها بالفعل، ولم يكن هذا التغير غريبا، فقد بدأ الذيل بالظهور فوق مؤخرته بشكل طبيعي، كما هو الأمر لدى الآخرين، فسألته بشعور يتوزع بين الفرح والافتخار:

– هل من نتيجة ما، هل تحس ما أحس به؟

جاوبها بصدر منشرح وبرضاه التام عن النتيجة. أيام وسيتخلص من الذيل الاصطناعي القميء، والأهم منه أنه سيتخلص من محاولات التمثيل الصعبة التي يمارسها أمام الآخرين لخداعهم بأنه يملك ذيلا حقيقيا. وبالفعل، حدث ما كان يحلم به، وعثر أخيرا على ذيله الحقيقي الذي عكر عليه حياته كلها باختفائه المفاجئ قبل سنوات. وفرح على أن ذلك اليوم الأسود قد أصبح جزءا من الماضي وسيتابع حياته مثل غيره كالمعتاد، رغم قيام اللا ذيليين بحوادث انتقامية على الإعدامات الجماعية لهم في سجون البلاد. فازدادت تحركاتهم العنيفة في الآونة الأخيرة، ردا على عنف السلطات تجاههم. حتى جاء ذلك اليوم الذي قدم إليه زبونا شبيها إلى حد التطابق مع ذلك الزبون الذي أوصله إلى المطار في ذلك اليوم الأسود الحزين. والغريب في الأمر أن الزبون الجديد طلب منه إيصاله إلى المطار، فوافق بالطبع. إلا أنه كان مذهولا وكاد أن يغرق في الضحك على فقدان الزبون لذيله، وتجمدت الضحكة على شفتيه عندما تذكر ضحكة الزبون القديم. وفي الطريق إلى المطار أخرج الزبون الجديد الذي كان يجلس إلى جواره في التكسي مسدسا حربيا وهو يطلب منه التوجه إلى ساحة المدينة بدلا من المطار، فانصاع مجبرا إلى طلبه، ووجه

مقود التكسي بناء على طلب الزبون إلى ساحة المدينة. طلب منه الزبون إطفاء محرك التكسي والتوجه معه إلى الساحة، فاقتيد إلى الساحة وفوهة المسدس تلامس صدغه. بوصوله إلى الساحة فهم كل شيء. كانت هناك مجموعة هائلة من المسلحين اللا ذيليين الذين كانوا يتحدثون عن ثورة شاملة، وعن انقلاب قادم سيطيح بالرؤوس الكبيرة التي تدير هذه البلاد. أجبره الزبون المسلح على الانضمام إلى الحشود التي اجتمعت تحت تهديد السلاح هناك. وخطب فيهم قائد المجموعة المسلحة بالسكاكين والبنادق قائلا:

– عليكم أن تحسموا أمركم الآن وخلال دقائق وأن تختاروا بين رؤوسكم وبين ذيولكم، إما أن يبقى الرأس فوق الجسد أو يبقى الذيل فوق المؤخرة. من يختار رأسه، فليضع يديه على رأسه، وسنقطع ذيله. ومن يختار ذيله، فليضع يديه على ذيله، وسنقطع له رأسه. ومن لا يختار أحدهما، فسنقطع الرأس والذيل معا .

ولأنه اقتيد إلى مكان في نهاية الحشود، فقد كان يرى هذا المشهد العجيب بوضوح. ما لفت نظره أن أيادي الحشود ارتفعت وهي تضم ذيولها بخوف دون أن يتأخروا في حسم أمرهم. وبدأ ت حفلة قطع الرؤوس الصاخبة، فبدأت بالتدحرج في محيط الساحة، تحت سماء مكتئبة، مغطاة بغيوم تتخذ أشكال ذئاب رمادية. كان صبري، سائق التكسي، مذهولا، يفكر في الساحة حينا وفي من هم خارجها حينا آخر، فيما حملة السكاكين يقتربون منه شيئا فشيئا، وهو محتار في الاختيار بين الذيل والرأس.

(*): كاتب وروائي كُردي سوري، يكتب باللغتين الكردية والعربية، يقيم منذ العام ٢٠٠٠ في ألمانيا. حائز على جائزة الرواية الكردية في العام ٢٠١٥ من دار أنديشه في السليمانية– كردستان العراق.

ممدوح عبد الستار*

السدود

مازال البرق يخطف بعض الظلمة، ويباغتني برجفة. ربما يقصدني، وربما يُصبح بشارة أو وعيد. ستختفي الظلمة عما قريب، ويبهت البرق، وسيعود النهار حتماً. هذا رجائي، فعدتُ للدار بعدما توجستُ، وارتجفتُ، ورميتُ ما أنا فيه بغطاء ثقيل.

ما إن صحوت من نومي بعد طول الرقاد، حتى دنوتُ من أمي، والتصقتُ بها، ننظر للشارع الخالي، ورذاذ المطر يهبّ على وجهي عنوة. تحسستُ ساعتي بعد مدة، فكساني الحزن والغمّ برداء ثقيل، وفتحتُ النافذة الأخرى، فأيقنتُ أن السماء تغسل أرضيتها الرمادية. الليل هرب من الصبح، والصبح وقفٌ على ليل، والليل والصبح في هذه اللحظة شيء واحد: (الوقت متأخر، لا عليك) فارتديتُ ملابسي، وهممتُ بالخروج، وفتحتُ بوابة الدار. نظرتُ الطريق. الطرق موصدة أمامي: (لن أصل إلى ما أريد) فرضيتُ كَرهاً بالجلوس، والنور الطبيعي والصناعي قد ذبلا، وانطفأ برذاذ المطر. أشعلتُ سراجاً لا يُسمن ولا يُغني، وتحلقنا حوله، وملأنا بطوننا. عقارب الساعة هاربة، ومختفية. لا أحد منا يجيد الحكي، ولا يملك غريب اللفظ، أو النكات. الكل يدور، ويبحث في وجه الآخر عن شيء نغلّ به الوقت، ونزج به قرباناً لصبح آتٍ. ندور جميعاً بين الغرف. مَلَّ مِنّا الدوران. ذبالة ضوء السراجة لا تفي بقراءة سطور أي كتاب، فطللتُ بجذعي من النافذة. المطر يهبّ على وجهي، الذي اكتسى ببرودة مبهمة.

***

النسوة يحملن الجرار المملوءة بالماء السماوي، يذهبن إلي ترعة الباجورية، ويعدن سريعاً، ليحملن غيرها. النشاط يدبّ في أجسادهن، ولا يخجلن من كشف مناطق أنوثة بَضّة. والرجال في قعر البيوت يتسامرون مع ذكريات شحيحة، ودخان النرجيلة يغطي

حالهم الممزوج بالسكون. صنعتُ مركبة ورقية، وألقيتها في بركة ماء، لكنها لم تتحمل كل تلك الأنوثة البَضّة في شارعنا، وانتفخت أحشائها بالماء، ومارت، ولم أجد لها أثراً.

شارعنا– شارع النصارى– ينخفض حيناً، ويرتفع حيناً. حين ارتفع بالماء شبراً، تفتق ذهن الرجال والنسوة بإقامة السدود. كلٌ علي حسب مساحة داره، وبإقامة السدود، أو الحدود، بدأت الشتائم، والاتهامات، واللعنات. لا يوجد بدارنا نسوة غير أمي العجوز، فوقفتُ أرقب النسوة، وهن يصنعن السدود:

– يا آمال، كمّلي السد للآخر يا لئيمة

فأكملته مرغمة، والمطر المنهمر لا ينقطع. وبدأ الرجال والنسوة يخافون تصدع السقوف الخرسانية.

نظر أبي ناحية اليمين، وناحية اليسار، ثم خرم سدّاً من السدود، والسدّ الثاني ينظره، وينتظر أن تدسن النسوة عليه وهو فرح. صعدنا –أنا وأخوتي– لإزاحة الماء من السطح، وقلتُ:

– النهارده الجمعة

– يعني إيه؟

– القيامة

– مش فاهم!

- سنموت بالماء

- مفيش فايدة من نشل الماء

فنظرتُ من فوق السطح الخرساني إلي أسفل، فوجدتُ السدود كلها قد انمحتْ.

***

هامش

١. حين كفّت السماء عن الأرض، وقفلت صنبورها، واطمأن الناس بشارع النصارى؛ كفّت أياديهم عن لملمة الماء من أعالي السقوف، ونزلوا مهرولين إلي الشارع، يقومون بعمل السدود مرة أخري، وأبي لن يستطيع أن يخرم أي سدّ، هذه المرة.

٢. حينما كانت السماء قطعة من ماء عالق، وحينما وجدتُ الأرض لا تبلع الماء؛ أدركتُ أنه لابد لي من عمل مركبة شراعية، ولكنني خشيتُ -فقط- علي نفسي من سوء الظن والتأويل المفرط، وأنَّى لي بالخشب والوقت؛ فأيقنتُ أني عاجز، ولم أبد رغبتي لأخوتي، وأهلي، وسكتُ.

(*): روائي وقاص مصري. صدر له: السمان يستريح في النهر، مقامات التفرد والأحوال، السامرى، ظلال. حصل على عدة جوائز منها: جائزة إحسان عبد القدوس في الرواية، وجائزة سعاد الصباح في القصة القصيرة، والرواية، بالإضافة إلى جائزة مجله دبي الثقافية، وأخبار الأدب، ونادي القصة بالقاهرة.

باسم سليمان*

أجمة القصب

تغيّر كلّ شيء منذ قُرِئت فاتحتها. لقد كانت تظنّ، فيما سبق، أنّ يزورها الدّم كضيف ثقيل كلّ شهر، كافيًا لأن تدخل عالم النساء، لكنّ هذا التفصيل ظلّ محدود الأثر إلى أن قام ثدياها حقّ قيامتهما، واستدارت عجيزتها بمدار إهليلجي، عند هذه اللحظة أيقنت أن التبدّل قد اكتمل، ومن ثمّ أتى شراء جهاز العرس، وما تضمّنه من ثياب داخلية، ليمحو معتقداتها السابقة، فالأنثى لا تصبح أنثى، إلّا عندما يدخل الرجل حياتها.

في طريق عودتها من العاصمة مع أمّها، كانت تحدس أنّه يراقبها من بعيد، لكنّها لم تره. تمنّت أن تخلو به للحظات كي يسمعها كلامًا أخيرًا يظلّ في ذاكرتها ما دامت حيّة، إلّا أنّه ظلّ مختفيًا أو خفيًّا، كأنّه إحدى بنات أفكارها. أخيرًا همست لنفسها: لم يكن إلّا ظنّا. لم تطل التفكير بذلك، فقد كانت منهكة من يوم السفر الطويل، لكنّ شعور الخجل الذي راودها فيما كانت أمّها وحماتها تساومان البائع على ثمن الثياب الداخلية، استمر معها إلى أن ولجت سريرها مع سؤال بلا إجابة: من أين لأمها وحماتها هذه الجرأة؟ فهي اعتادت رؤية أمها، وهي تنشر الثياب الداخلية في أماكن خفية، لا يصل إليها حتى الضوء، إلّا في ظلال شاحبة .

****

أشرقت الشمس على البلدة، وكما ينتشر شعاعها بخفّة اللصّ، تفشى خبرٌ، بأن قطعتي ثياب داخلية، (سوتيان أصفر وسليب أسود)، معلقتان على أجمة القصب في أعلى الشلال، كأنّهما رايتان. جاء الرجال والشباب والأطفال والنساء والفتيات للمشاهدة وتبادل الأحاديث حول من فعل ذلك، تتناهشهم التخمينات والشكوك والظنون. امتعض المتزوجون، وتنادر الشباب، في حين طُلب من الأطفال أن يقذفوا قطعتي الثياب الداخلية بالحجارة، كي تسقطا ويجرفهما الشلال. مرّ الوقت ثقيلًا على البلدة وفي خضم ساعاته، دارت صراعات خفيّة بين المتزوجين، وطالب الآباء بأن تتفقد الأمهات أردية بناتهن الداخلية، إذا كان قد فُقد منها شيء، إلّا رجلًا واحدًا، انتظر أن يخلد أفراد أسرته للنوم، ومن ثمّ بدأ باستجواب زوجته الطريحة الفراش نتيجة كسر في ساقها.

لقد كانت أردية زوجته الشابة، هو يعرفها، فقد طلب منها، أن تشتري (سليب أسود وسوتيان أصفر) لأنّه يراها كالنحلة، أمّا هو فقد كان اليعسوب. كانت زوجته تبكي بين يديه اللتين تعصران رقبتها، وتقسم بأعظم الأيمان وتبرّر، وتسبّب، وتستنتج، بأنّها لا تعلم شيئًا. كانت ليلة قاسية لم تعرف النحلة مثلها، منذ ولدت. وكانت متيقنة؛ إن لم يذبحها زوجها، فإنّ أخاها سيفعل ذلك.

أشرقت الشمس من جديد على البلدة التي نامت على ألف قصة وقصة، ظنّ بها أهلها، بأنّ يوم الغد سيطوي الفضيحة. وقد حمدوا ربّهم بأنّه لم يدخل أي غريب بلدتهم، فيفتضحوا في شرفهم بين البلدات والقرى المجاورة.

لم تتطهّر العيون المستيقظة من النوم بعد، حتّى كرّر اليوم الجديد، سيرة اليوم السابق. ففي ذات المكان الذي لا يمكن أن يصله أحدٌ عُلّق قميصٌ داخليٌّ أسود شفاف على أجمة القصب. لم يكن هذا القميص من مقتنيات النحلة، وعندما تعالت أصوات امرأة تُضرب من قبل زوجها، تنفست النحلة الصعداء، وحار يعسوبها ماذا يفعل.

اجتمع الرجال في بيت رئيس البلدة يتدارسون هذه الفضيحة التي تكرّرت لليوم الثاني، وأقنعوا الرجل الذي صبّ جام غضبه على زوجته، بأنّ في الأمر أكثر من ممّا يوسوس الشيطان في نفسه، وأن غسل الشرف يحتاج إلى شهود، والحدّ يُدرأ بالشبهات، فليتقِ الله.

للحقيقة، لقد تمنّت بعض النسوة ألّا تشرق الشمس، إلّا وقد اقتلع سيلٌ أجمة القصب من جذورها. حتّى أن بعض الرجال رغبوا بأن لاتشرق الشمس مطلقًا، فقد تناهى تفكيرهم إلى أن دورهم آتٍ. لم تتحقق أمنيات النساء ولا الرجال، وأشرقت الشمس من جديد على القرية المنكوبة بسروال من الدانتيل الأحمر، وسوتيان أحمر مطرّز بالأسود، في حين بدت لهم أجمة القصب كمهرج يسخر من أهل البلدة التي أصيب أهلها بالحمق، فقد راودتهم عن أنفسهم فكرة أن يغيّروا مجرى النهر.

اقترح رئيس البلدية بأن يتخلّوا عن أفكارهم الجنونية في تبديل مجرى النهر، فالعاصمة فشلت في ذلك. وأن يقوموا بدلًا من ذلك بنوبات حراسة بين البيوت وعلى ضفة النهر بمحازاة الشلال، ليقبضوا على هذا الشيطان الذي حلّ في بلدتهم.

عسعس الرجال في شوارع البلدة، وسهرت النساء قرب خزاناتهن وصناديق ثيابهن، لكنّ الأمر لم ينفع، ومن جديد كانت الأجمة، قد أظهرت ثيابًا داخلية جديدة. همست امرأة إلى زوجها بأنّ تلك الثياب الداخلية تعود لها، فأمرها بالصمت، وإن ثرثرت بالحقيقة إلى جاراتها، سيطلقها، إن لم يذبحها.

تتالت الأيام، وأجمة القصب تزدهي بالثياب الداخلية النسائية، التي تشعل رغبات العزّاب، وتُخجل الفتيات اللواتي نهدت أثداؤهن وتكوّرت أردافهن، فيما الرجال وبعد أن اقتنعوا بعدم جدوى الحراسة في الطرقات وعلى ضفة النهر قرب الشلال، قاموا بوضع ثياب نسائهم الداخلية في صناديق وسهروا على حراستها. لكن هيهات أن ينفع شيء، فالأجمة تنمو، ويتطاول قصبها، وأخبارها وصلت إلى البلدات الأخرى، فبدأ سكانها بالتوافد، واختراع الأسباب للمرور عبر البلدة التي فضحت نساؤها بأن ظهرت ثيابهن الداخلية إلى العلن. بدأت أعمال عنف من قبل شباب البلدة تجاه من تسوّل له نفسه بالقدوم لرؤية أجمة القصب، وسمعت هتافات من شباب البلدة: الشعب يريد إزالة أجمة القصب! هذا الواقع المستجد والخطير استدعى أن ترسل العاصمة قوات حفظ النظام إلى البلدة، وتأمين ضفة النهر، لمن يود أن يأتي سائحًا وعلى إثر ذلك انتشرت عربات بيع الفول والحلويات والمشروبات الغازية قرب الشلال .

لم يترك أهل البلدة مقترحًا كي يخرجوا من هذه المصيبة، إلّا وقد حاولوا تنفيذه، حتّى أنّهم طلبوا سيارة إطفاء بسلم طويل كي يمدّوه فوق الشلال، ويتطوّع أحد الشبّان المشهود لهم بحسن السيرة أن يتدلّى بواسطة سلم الإطفاء نحو الأجمة عبر حبل ويعمل منجله فيها. لكن ذلك لم يحدث، ليس لأنّه من المستحيل أن تصل سيارة الإطفاء إلى ضفة النهر فقط، بل لأنّ السلطات في العاصمة رأت بأن الأمر ليس له من ميزانية مرصودة في هذا العام ومن الضرورة الانتظار إلى العام القادم. وعندما طلب أحد الشبّان أن تقصف

بالطيران، قوبل اقتراحه بالرفض، ومن وقتها لم ينم في بيت أهله، فبعد غروب الشمس جاءت سيارة بيجو نزل منها عدد من الرجال وأخذوه معهم.

فكّر الشبّان الغيورون والذين كانوا على وشك الزواج، بأن عرائسهم سيفتضحن، فربطوا أجسادهم الشابة بالحبال وخاضوا في النهر السريع الجريان، إلّا أنّ التيّار كان يدفعهم بعيدًا عن أجمة القصب التي تنتصب في وسط النهر كالقذى في العين. الكثير منهم أجّلوا زواجهم، حتى يأتي الشتاء ويجرف طوفان النهر أجمة القصب، مع علمهم بأنّها كانت تصمد دومًا، شتاء وراء شتاء.

تجادل أهل البلدة، بأنّ الثياب الداخلية هي لنساء متزوجات وليست لعزباوات وهذه رحمة من رب العالمين، فمن سوف يتزوج بناتهم عندما تنشر ثيابهن الداخلية على الملأ؟ وكأنّ أجمة القصب قد سمعت بالذي تجادلوا فيه وأضمروه، فلم تشرق شمس جديدة حتى ظهرت على قصباتها المتطاولات الثياب الداخلية لعزباوات القرية، والأخطر من ذلك أنّها كانت ثيابًا تجهّزت بها المخطوبات ليرتدينها في اليوم المنشود، حيث سيرفع المنديل الأبيض دليل عذرية لم تمس.

جنّ أهل البلدة وقرّروا مغادرة بلدتهم إلى غير رجعة. استشعرت الخطر العجوز التي كانت تدير بيتًا مخفيًّا للدعارة، لكنّه معروف للجميع، من رئيس البلدية إلى أصغر ولد في المدينة، فإن غادر سكان البلدة، فهذا يعني أن أعمالها ستكسد، ولم يعد في العمر متسع، لتأسيس بيت جديد في بلاد الهجرة، لذلك ارتدت أجمل فساتينها وتزيّنت كما لو أنّها في أول صباها، وقصدت دار البلدية، حيث تم عقد اجتماع يقرّر فيه كبار أهل المدينة ما هو الحلّ الأخير، فمن غير المعقول أن تكون مغادرة البلدة هو الحلّ الأخير. دفعت العجوز الباب ودخلت على المجتمعين، مستندة على عصاها، وقبل أن يهجموا عليها بالأخلاق والأعراف وقواعد الدين، صرخت بهم: كلكم مررتم على أسرة بيتي، فاجلسوا هادئين، أيّها الأطفال. ألم تلاحظوا، بأنّه لم تعلّق أية قطعة ثياب داخلية ممّا تلبسه فتياتي على أجمة القصب. أنتم أعلم بثياب فتياتي الداخلية التي تحفظون تصاميمها أكثر بألف مرة من ثياب زوجاتكم، لذلك اسمعوا؛ إن من يفضح شرفكم عبر نشر ثياب زوجاتكم وبناتكم، ليس من

الأرض، بل من السماء، إنّها الشمس، أيّها الحمقى! إنّ ثياب بناتي الداخلية، على الرغم من جرأتها، فهنّ ينشرنها على شرفات البيت وسطحه، الذي تمرون من أمامه، وتختلسون النظر إليها، لذلك لم تجدوها على أجمة القصب، فهناك حكمة قديمة تقول: بأن الشمس تحبّ أن تنشر الثياب تحت أشعتها، وتكره أن تنشر في العتمة والأماكن المخفيّة. اليوم وليس غدًا، دعوا نساءكم وبناتكم ينشرن ثيابهن الداخلية على الأسطح والشرفات، وسوف ترون كيف ستختفي أجمة القصب.

صدّق البعضُ العجوز، ورفض آخرون كلامها؛ لكنّ الواقع أصدق إنباء. لقد بدأت الأجمة تفقد قصباتها، قصبة تلو أخرى، ما إن تنشر أنثى ثيابها الداخلية على السطح أو في شرفة بيتها. رويدًا رويدًا، اقتنع الجميع، واختفت أجمة القصب. سألت إحدى الفتيات العجوز الحكيمة: كيف عرفت ذلك؟ ابتسمت العجوز ابتسامة تعود إلى أيام شبابها ومن ثمّ خرجت من غرفتها، كي تتفقّد فتياتها. كانت إحداهنّ غاضبة من أحد الزبائن وتجادله، لحظة وصول العجوز إلى غرفتها. ضربت العجوز بعصاها الرجل قائلة: كن لطيفًا أيّها البغل.

*****

استيقظت الفتاة هلعة من كابوس ألمّ بها أثناء نومها، تتعوّذ بالله من شرّ الشيطان الرجيم. قفزت من سريرها نحو أكياس الثياب التي جاءت بها من العاصمة، وبدأت بتفقد ثيابها الداخلية، واحدًا، واحدًا، وفي هذه الاثناء كانت الشمس قد بدأت بالبزوغ.

(*): أديب سوري، صدر له: تشكيل أول –نصوص، تماماً قبلة –قصص، لم أمسس – شعر، نوكيا –رواية، مخلب الفراشة –شعر، جريمة في مسرح القباني/ الحد والشبهة –رواية، الببغاء مهرج الغابة.

رجاء عبد الحكيم*

عواء الذئاب

ترسم الشمس الغاربة طريق عودتنا إلى البيت، يبدأ النهار في الاختفاء التدريجي حتى تطفو العتمة من خبايا الضباب. في غبش الغروب غيمةٌ مِن دخان تطير وتتراقص، ينصب الكون حولنا الفخاخ.. كم من الطيور يكوّرها غروب الشمس في شِباك الصيادين! بيوت طينية تنفس دخانًا، يسيل الدخان ويغمر لونه الرمادي الأفق الذي تعبره الطيور الناجية إلى أعشاشها، تضرب الأدخنةَ بأجنحتها، تشق لها طريقًا في العتمة.

أشاهد الكونَ من خلال عيون مهتاجة بأشعة الشمس الصفراء، رائحة الليل القادم تتسكع لوقتٍ طويل فى الدروب، يتلاشى الضوء الأخير للنهار المارق، يسلّمني ضوء النهار قبْل أن يتلاشى عهدةً للظلام الآتي، أنتقِل من رائحة المرعى إلى رائحة البيوت، بينما يكنس المساء الأشياءَ الهشة ويحيى الذكريات. الشارع حفرةٌ ضيقة ومتعرجة ينام فيها الليل، هأنذا قد وصلت إلى البيت الذي تسنده كومة من رماد الفرن، يضاعف الظلام الأشياءَ هنا بينما تضيع أشياء الذاكرة في تفاصيلها الكثيرة هناك ، تستنكر المِرآة المغبّشة وجهي الباحث عن هويةٍ ما، في البداية جعلت أشعر بثقل تلك الأشياء، اسمي.. صوتي.. وملابسي، ومن ثَم أخذت في التعود عليها، في هذا المساء الذي لا يشبه المساءات التي عشتها ثقل الدهشة أسَرَني حتى شعرت برأسي كما لو كان يقرع في الجدار، كنت فقط والأرض تدور بي بعدما سمعتها لأول مرة كانت شفَتَا أمّي لا تتوقفان كمَكَنة رَي ينبجس من رأسها شيء آخر غير الماء يحملني في غيبوبةٍ أبدية، وهي تردّد قائلة "ابن عمك يريد الزواج منك!" ووقف هناك جدار أسمنتي في حلْقي فلم أقل شيئًا، ولكني قلت لنفسي مذهولة كيف يسعى رجلٌ للزواج من رجلٍ مثله تمامًا؟ لقد نسيت كيف ينبغي أن يبدو عليه شخص مرت عليه كل هذه الأعوام من التحول، توفّي أبي وتركنا، كنا خمس بنات، كنت أنا الكبرى، وكان أبي يقول لي "انتي راجل في وجودي، وراجل في غيابي، انتي أخ لإخواتك". بعد أن مات كنا خائفاتٍ أن نخرج بأغنامنا إلى المرعى، نخاف الذئاب والبشر. اجتمعت أنا وأخواتي وأمّي في هذا المساء البعيد، وفكّرنا واعتصرنا أنفسنا حتى وصلنا لحل، ولأني كنت طويلة.. وكان أبي قصيرًا فقد جاءت ملابسه مضبوطة تقريبًا على جسدي، في هذا المساء ارتديت جلابية أبي وعمامته، وتبخترت في قطعة المِرآة التي تلصقها أمّي بالطين على الجدار، فأعطتني صورة ولدٍ وسيمٍ أسعدَ أخواتي وحلّقن بي، ومِنهن مَن قالت "أخي"، ومنهن مَن قالت "أبي"، وبدأنا نتدرب على تغيير الصوت لكى يكون جافًا وخشنًا ومرتفعًا، كما

الرجال، واقترحنا أيضًا تغيير الاسم؛ فنحن لم نسمع عن رجلٍ اسمه "سهام" واقترحت أخواتي أن يجمعن لي اسمًا مخيفًا يخيف مِني الناس، ويمنحني الهيبة، جرّبنا الكثير من الأسماء واخترنا اسم "عتريس" لأنه كان جبارًا في فيلم شادية الذى نشاهده في التليفزيون الذي نمتلكه، والذي لا يعمل إلا بالضرب على رأسه، وصار اسمي بمرور الوقت "عتريس" في البيت وخارجه، حتى أمّي صارت تناديني به، وتتعامل معي بمنطق الولد، ولا تخاف عليّ مِن الليل كما تفعل مع أخواتي؛ فقد اعتقدت أني ولدها عتريس الذي أكرمها الله به ليساعدها وبناتها على المعيشة، كنت رَجَلهن، وحينما يأتي الشتاء وينقضي ويحل الصيف محله تبدّل الأرض ثوبَها بمحاصيلَ للشتاء وأخرى مختلفة للصيف، أمّا أنا فأظل هكذا رجلاً، وقد استبدلت ملابسي الداخلية بملابس أبي فانلاته وسراويله الطويلة، وفى الشتاء أرتدي كلاسينه الصوف الخشنة، وتماديت فجربت أشياء جديدة تُمكّنني من قهر المخاوف التي كانت تغافلني وتطرق باب قلبي الذي أوصدته أمامها، فقد كنت أجبر نفسي على الذهاب بمفردي في طريق الطاحونة المهجور عندما يتنفس الظلام أشباحه ومخاوفه هنا لإخافتي من اللاشيء، كان ما يميزني عنهن وهو ما كنّ يلمسنه في الواقع، هذه القدرة على مواجهة الظلام، كنت أرى نفسي كما لو كنت ابنةً شرعية لليل، فهو لا يخيفني مثلما يخيف الآخرين، في البداية كنت أرى نفسي في ثوب أبي وعمامته كما لو كنت فأرًا ألبسوه جِلد نمر، كنت أشعر كما لو أنني ألبس جسدَ حي، كان الثوب ينثر فيّ القوةَ والهيبة حتى استطعت من خلاله منازلةَ الأولاد الذين كانوا يصادفوننا في المرعى، أنا وأخواتي، هؤلاء الذين كانوا يرغبون في فرض سيطرتهم علينا، أمّا هذا الولد الذى كان يحوّم حولنا، فكان يبدو أنه يكبرني قليلا، ويسير دائمًا متسكعًا في المرعى، بدا يومًا مختلفًا حينما مزق صوته الصمتَ حولي كرشاش بندقية خرطوش، كنت أجفل منه بكوني أراني صبيًا، خفتُ في البداية تحرشَّه بي وأخواتي الصغيرات، كنت أهمّ، كلما حاول الاقتراب منا بدون أن أرفع وجهي نحوه، أن أمطره بوابل من الأحجار، أنشغل في جمع الأحجار وأوجّهها له وأنا أتظاهر أني أهشّ بها على الأغنام فتصيبه، فيولّي صامتًا ويذهب بعيدًا عنا، وكانت اللحظة في أحد الأيام عندما لم تكن أخواتي يتحلّقن حولي، تَدحرج خلفي كذئب، لقد تمكّن مني إذ طوّقني من الخلف بشكلٍ مباغت، وسَكّر فمي وأنفاسي بيده وهو يردد "لا تخافي؛ أنا مثلك تمامًا"، وأزاحت العمامة عن شَعرها الذي هبط منسدلاً أمامها، وعندما هدأتُ واستوعبت المفاجأة سألتها "كيف عرفتِ أني بنت ولست ولدًا؟" ملأت ضحكاتها المرحة الفضاءَ، جبهتها وعيناها يتلألئ فيهم شيء غريب، ومن يومها صرنا

صديقين، أقصد صديقتين، قصت عليّ تجربتها في الزواج، قالت لي إنه شيء مؤذٍ أن يتزوج رجلٌ برجل، "تصوّري طلب منى أن أرقص! في الحقيقة مجربتش" قلت استني . قال :هترقصي؟

قلت "هاخذ هدومي"، وفعلاً مشيت ورجعت راجل مثلما ما كنت قبل أن تتم كلامها بحثت بعيني عن موضع ثدييها، كان المكان فارغًا تمامًا، وسألت نفسي هل تخلصت منهما؟ ركّزت في كلامها حينما عادت تقول "جميل ان نشوف الدنيا بعين راجل، يمكن قصتنا فيها شبه، كنت وحيدة أبويا، كنت باتكلم بصيغة الولد، وكان ده يسعد أبويا وامّي، وصمم أبويا اني ألبس ملابس ولد، وكنت أشوف الفرحة بتنط في عِنيهم بكوني ولد مش بنت". كانت تعود لتحكي لي عن أيام زواجها فتتأرجح الكلمات والحكايات المحرِجة تندلق على لسانها، ويتذبذب وجهها بين الشحوب والألم، ثمّة لمعة تشبه الإعصار في عينيها؛ فقد بدت لي مثل زهرة العباد تزهو في الشمس، كانت تبدو لي باردةً وسعيدة بهذا الانفصال والتحرر، لم تكن معنيةً بمن يراها أو بمن لا يراها، مليئة بالحيوية، وضعت يدَها في جيب ثوبها الرجالي وأخرجت علبة سجائر وعلبة كبريت، كشطت رأس الثقاب وقرّبته من السيجارة المثبتة بين شفتيها، أخذتْ نفَسًا عميقًا شهيًا، غيّبت عينيها ملامح الدهشة التي عامت في وجهى نحوها؛ فقد فرغت حمولة فمِها الممتلئ بالدخان ونثرتها في وجهي وهي تردد باسمة "انتي لسّه مش راجل كامل". قد تبدو لي أنه ليس لها دور في كل تلك الأسئلة التي تفجرت داخلي، تلك الشجاعة التي مدّتني بها لأرى بها نفسي في تلك الليلة المتوغلة في عتمتها، لماذا صرت أنا مثل البوم يستهويني الظلام؟ حيث نامت أمّي وأخواتي، وفى الصالة على نور اللمبة الباهت وأمام تلك المرآة المثبتة بطين في الجدار، والتي شهدت تحوّلي منذ سنوات وباركته وقفت أمامها متحسسة ملابسي التي أرتديها، أنفاسي المضطربة تخرج مصحوبة بتنهداتي، جرّبت صوتي بحثًا عن صوت البنت بداخلي، ولكن ظل الصوت صوت عتريس، صوتًا معجونًا بعواء الذئاب!.

(*): قاصة من مصر.

هاني السالمي*

مشاهد لا تشيخ في عقلي

أعمدة الإنارة الخشبية المتهالكة التي تحمل عشرات الأسلاك المتشابكة مهمتها صيد طائراتنا الورقية واستراحة رائعة للحمام المخيم المصاب باكتئاب من أقفاصه المركونة فوق القرميد ...

شتلات البندورة التي نبتت عند تجمع ماء المطبخ بجوار الحائط الخلفي، ننتظرها بفارغ الصبر لتنضج ثمارها ونصنع حفل عشاء خفيف...

العجوز التي تضع البيض الفارغ (القشرة كاملة) على أغصان الشجر لتطرد الحسد والأولاد من سرقة حبات الليمون ...

ساعة الحائط المعطلة ولم نقدر على خلعها من الحائط خوفاً من أمي لأنها تعلق عليها صورة جدي ومسبحتها الطويلة التي تقارب عدد حباتها أيام فصل الشتاء...

صديقي كان يركض بسرعة ويتلوى ولا يمكن لأحد أن يمكسه ولا يخسر أي لعبة بها ركض وجري... لكنه الوحيد الذي استطاع الجندي الروسي الضخم أن يمسكه بسرعة دون تعب ونحن فلتنا من الجنود... لكن يبدو كل الخبرات وقت الخوف لا تُغني بشيء...

كنا نخلغ الشوك عن لوح الصبر الأخضر الطري الصغير (البلابل) ونقطعه ثم نرش عليه ملحاً ونأكله... طعمه يشبه فاكهة الكيوي في هذا الزمان... كنا نشبه شراهة الصينين في أكل كل شيء وحتى كنا نأكل مؤخرات الدجاج (الزعزوع...(

المشاهد لا تشيخ لكن نحن نشيخ مع متلازمة الفقر المدقع ...

تأمل..

١. الأشجار كانت بشراً تركض خلف الغيمة الوحيدة ... لكن الله أشفق عليها ونثر لها الغيم في كل مكان... فوقفت الأشجار وحولت تعبها إلى ظل وثمار بألوان قوس قزح...

٢. كلمة الحمد لله سمكة جميلة في البحر فصادها فقير وأعجب بها فلم يأكلها... فعلقها امام البيت فكلما نطق باسمها زاد الحب في المكان... (الحمد لله).

٣. الابتسامة أيضا كانت مخلوقاً من زجاج مدفونة في الأرض فجاء سيل قوي فطفت على الماء... فجاء غبي ليكتشف ما هذا المخلوق فكسرها... فانتشرت قطع الزجاج في الأرض فصرنا نضحك بصوت عالي أمام المرآة ...

٤. القهوة سيدة سمراء لم تحظ بقبلة من أحد فحزنت كثيراً... فحولها ساحر ماكر إلى مذاق فصار الناس يقبلونها في الصباح والمساء ووقت الحزن والفرح فصارت سيدة الفصول الأربعة ...

٥. الشرفات في البيوت هي مساحة للحرية لصباح دافئ مع جريدة طازجة ساخنة لتقرأ نعي صديق لك غاب منذ عشرين عام إلى بلاد الثلج الأبيض ...

(*): روائي من فلسطين، قطاع غزة. صدر له: اليهودي الأعرج (رواية)، المسيحي الأخير (رواية)، ماسة (رواية)، الظّل يرقص معي (قصة للأطفال)، هذا الرصاص أحبه (رواية)، الجنة الثانية (رواية)، حين اختفى وجه هند (رواية للأطفال)، سر الرائحة (رواية للأطفال)، الندبة (رواية).

إلزا نصره*

الجدار

تواطؤ الزمن والقدر رمى بي في تلك البقعة من العالم.. المسورة بجدران منيعة، الغارقة في ليل حالك طال أمده.. آه كم أضناني الشوق والفضول لرؤية نور الفجر.. تساؤلات وتساؤلات تتربص في رأسي. كلمات تعصف كدوامة لا تهدأ: "كيف؟ لماذا؟ أين؟"

ها أنا أتجاهل نظرات كل من حولي وأتابع ما بدأته. ثمة أشخاص قلائل يفعلون ما أفعله، بينما الغلبة ينظرون إلينا شذراً..

الجدار خلفي بات منظره مروعاً بفعل الأخاديد والشقوق المحفورة.. لكن جماله لم يعد يعنيني.. في غمرة انشغالي اقترب أحدهم مني وهمس: "كفاك جنوناً.. توقف عن فرك رأسك بالجدار. عبثاً ما تفعل."

لم أعره أي اهتمامٍ.. وتابعت عملي بشغف.. أدميت رأسي.. وانبثق أخدود جديد في الجدار الصلب. أمعنت النظر فيه فتراءى لي ثقب في وسطه.. صوبت بؤبؤ عيني على الثقب علني أتمكن من رؤية مايستتر خلفه. كانت الرؤية ضبابية ومبهمة.. وقفت لبرهة حائراً لكنني ما لبثت أن عاودت ارتكاب فعلي مجدداً بأمل يحدوني على تحقيق المزيد.

أطياف وأطياف تعبرني. يرمقونني باحتقار، وكراهية.. يغرقونني تحت وابل من نظرات وعيد خطيرة.. يسمعونني شتائمهم.. لكن كل ذلك كان عبثاً.. ولم يحل دون إتمام ما بدأته.

لا أخفيكم.. في بعض اللحظات العابرة كانت تجتاحني مشاعر اليأس، إلا أن رؤية قلائل يقترفون فعلتي، وخاصة مشهد رؤوسهم المدماة، وصوت كلماتهم الرنانة والجليلة يعود ليبثّ القوة مجدداً في داخلي، فأتابع عملي بلا هوادة.. وكلما نال مني التعب كنت أسترق نظرة إلى القمر الشاحب.. فأعلم أنه سيبقى هناك رغم خفوته وضآلته أمام جبروت الظلام الدامس، والمهيمن على المكان.

صوت احتكاك رأسي بالجدار أزعج الكثيرين.. فقد حدث في أحد الأيام أن اقتربت مني امرأة وشتمتني قائلة بصوت مرتفع ذي نبرة غاضبة: "ويحك أيها الخنزير.. كيف تجرؤ على تشويه جدارنا؟!" ثم ابتعدت من دون أن ينتابها أي خجل أو تأنيب ضمير.. تلاها رجل عجوز اقترب مني مردداً كلمات أوحت بأنه صاحب النفوذ والقرار الفصل: "الموت. الموت لأمثالك.. حتى النساء أفهم منك وأكثر إخلاصاً". حرصت على أن أتجاهله، وابتسمت بسخرية وأنا أفكر

بمعاني كلماته المتناقضة : "الموت، والنساء، والفهم. لم المقارنة بالنساء أصلاً؟ هل من باب رفعة مكانتهن وتقديرهن؟."

أدرت للحشود ظهري وعدت أفرك رأسي بقوة، وبعناد أكبر وأكبر..

الأيام تمر، والدماء تسيل، والأخاديد تتبدى جليّة من دون أن أخترق الجدار. وحدها المشاعر العدائية هي الإنجاز الوحيد الناصع بلا موارية في هذا المكان.

اليوم حدث ما لم يكن في حسباني. إذ ثمة طفل صغير تسلل نحوي، وتجرأ على الاقتراب مني بحذر.. ثمّ سألني بالخفاء: "لماذا تفعل هذا؟

توقفت لبرهة، أمعنت النظر فيه لثوانٍ.. هاهي فكرة تعتمل في عقلي، فتراني ارتكب ابتسامة آثمة على وجهي. اقتربت منه بتوجس، وهمست في أذنه: "هل تعرف ماذا يوجد خلف الجدار؟."

أجابني بدهشة: "لا.. ماذا يوجد؟! هل ثمة ما يتوجب رؤيته؟."!

لم أجبه حالاً، وإنما هززت له كتفي وقلبت شفاهي. فما لبث أن اقترب وأخذ يتلمس الأخاديد بفضولٍ غامر يعتريه.

سألته مجدداً، وأنا أمسك يده وأضعها على مقدمة رأسه: "تحسس رأسك.. هل تشعر بشيء؟."

أجاب باستغراب: "نعم.. إنهما برعمان صلبان".!!

فقلت: "انظر حولك إلى رؤوس الجميع.. إن لم تفعل مثلي واستسلمت لما يريده الآخرون ستحظى بعد سنوات بقرنين جميلين.. ستصبح شبيههم تماماً لا أكثر ولا أقل.. ولن تحظى مطلقاً بفرصة اكتشاف ما وراء الجدار."

رمقني الصغير بنظرات استغراب يشوبه الخوف، وما لبث أن ابتعد إلى ركن قصي. لم يتأخر أملي عن التجدد، إذ حدث في الصباحات التالية أن سمعت صوت هسيس خافت قادم من بعيد.

(*): كاتبة سورية تقيم في سلطنة عُمان.

شيرين صالح*

مرايا العدم

تقود هيلين سيارتها باتجاه مكان عملها، تحدّق في الوجوه والأماكن التي تمر بسلاسة وبطء أمام عينيها كمشاهد من فيلم صامتٍ قديم.

الرجل المعتكف جوار أحد المحال المصفوفة على طرفي الشارع العام في مدينة القامشلي، يجلس القرفصاء وسط غابةٍ من أقدام المارة، طوال الوقت يحدق بشيء غير معين دون أن ينكس عينيه الضامرتين، يكرر بغنة وتواتر كلمات: من مال الله يا محسنين.

تكسو الظلال المتشابكة والمتداخلة بخطوطها جسده النحيل والممتلئ بالثآليل بينما تقف هيلين بسيارتها عند شارة المرور بألوانها الباهتة.

يذرع دينو المجنون الشارع بخطواته المتثاقلة، بجبة بالية ذات رقعٍ ممزقة وأوسمةٍ من أغطية زجاجات "الكولا" معلقة على صدره بشكلٍ عشوائي يكسوها الصدأ، فجأة ينتصب فتهتز كتل اللحم في جسده، يمسك بعصاه المزركشة بأقمشةٍ رثة لُفت عليها أعلامٌ مختلفة، ويرفع ياقته كقائدٍ مهيب، ليتعالى فوراً صياح السائقين ملوحين بأيديهم بغضب طالبين منه التنحي عن الطريق، لم يكلف دينو نفسه عناء إبداء أي ردة فعلٍ أو نسمة اهتمام بصرخاتهم، وبعجرفةٍ ملحوظة كان ينفث عقب سيجارةٍ التقطها من الأرض، وينفجر ضاحكاً وسط صرخات السائقين الشبيهة بعواء قطيعٍ من الذئاب.

تموجات دخان سيجارة "دينو" تغمر وجهه المشوي جراء الشمس اللاهبة، كل ذلك رسم بسمة خفيفة فوق ملامح "هيلين."

يشمر عن جبته و يبتعد عن المكان بتمهلٍ وبمشيةٍ عسكرية يصرخ بأعلى صوته: هيا اسرعوا هياااااا.. يقهقه يلطم براحة يده على أسقف سيارات السرفيس وسط الازدحام ذاك. يكمل: ثمة حفلة شواء بانتظاركم هه هه هه هه.

أثار كلام دينو دهشةً غريبة في نفس "هيلين" وهي تحدث نفسها قائلة: آآآه دينو...!! أحسدك على هذه الضحكة.

تتابع طريقها وسط الزحام وهي تعض على شفتها في محاولةٍ منها لمنع ضحكتها، ترسم بأنظارها خطوطاً وهمية باتجاه وجوه السائقين، وهي تستدير بشكلٍ غير مكتملٍ صوب فتاةٍ ترتدي فستاناً طويلاً بشقٍ يصل إلى الركبتين، وكمين قصيرين، اللون القاتم لفستانها يجعل بياضها أكثر نصاعةً.

كانت حركاتها وهي ترسم شفتيها بالأحمر الفاقع أمام زجاج إحدى المحال يغدو توصيفاً ملفتاً لوجهها العادي وقامتها المتوسطة- الممتلئة وشعرها المتموّج، الجميع يراقب حركاتها الناعمة وشفتيها اللتين تلتويان بغنجٍ، وبينما كانت تمرّر أصابعها على شعرها لتسوية خصلاتٍ نافرة، يمر شابٌ ذو عضلات مفتولة وشوارب كثة يمط من خلالها شفتيه ويمرر قداحته عليهما عدة مرات وكأنها أحمر شفاه، ثم يتابع طريقه على عجل دون أن تلاحظ الفتاة شيئاً.

كانت هيلين تقود ببطءٍ والبسمة ترسم خطوط عظمتي وجنتيها خلال شارع (عامودا)، حين اهتز المكان بانفجارٍ عظيم، اختفى الأفق بسحابةٍ كثيفة من ترابٍ تساقط من الأعلى، رمادٌ ابتلع الأبنية المدمرة، هدوء ثقيل يخنق ضجيج الحياة ويدفنه، لم يكن ثمة شيء يوقظ السكون سوى سقوط قطع الأبنية الاسمنتية التي لا تزال معلقة في الطوابق.

بعد دقائق تنزل "هيلين" من سيارتها وسط الخراب، المكان يضيق للحياة ويتسع للدمار وللناس الذين تجمعوا للتو، بعضهم يبكي وآخرون يلطمون، وجومٌ مرعبٌ لم تستوعبه "هيلين"، حدقت بغرابة بالناس الذين يحاولون الاقتراب منها وحملها، والبعض الآخر يبكون محاولين تغطيتها بقماشٍ أبيض تلوّن بدمائها، تتحقق من سلامة نفسها قائلةً بلغةٍ مرتبكة: أوه.. الحمد لله أنا بخير.

كلهم يديرون ظهورهم لها دون أن يأبهوا بها، يهرعون نحو جثثٍ مرمية ضاعت ملامح أصحابها الباهتة في أتون الدمار المخيم، تسألهم "هيلين" بدهشةٍ: ماذا يحصل يا عم.. أرجوكم ما الذي يحدث؟

يتردد صدى كلامها وسط صمت الجميع دون أن يجيبها أحد، تتنقل هيلين بين الركام بسهولة، وتدخل الأماكن المدمرة بخفة، تتلمس محيطها المعفر بأصابعها، يثير صوت دينو انتباهها وهو يخرخ من تحت الركام بمنظر بهيٍّ، اختفت الأوسمة والرقع الملونة من على جبته، يمشي بهدوء وكأنه هالةٌ من الضوء وعلى مسافةٍ صغيرة تعلو الأرض، يتمتم قائلاً وهو يلف رأسه يميناً ويساراً: يا لهذه الفوضى.. ما الأمر؟

تراه "هيلين" بنفس الصورة القديمة، لم يتغير من مظهره شيءٌ، مردفةً بغرابة: يبدو أن الأمور اختلطت في ذهني، أرى دينو مرةً بملابس نظيفة وأخرى بملابسه المعتادة.. هل أنا في حلم؟.. بعد ثوانٍ قصيرة تسمع الصيدلي "آرام" بقامته القصيرة وهو يناديهما بصوتٍ عذب وناعم يصدح في الحي: ألا تخبروني يا جماعة ماذا هناك؟ تنظر "هيلين" إليه فاغرة الفاه قائلة: غريب.. صوت آرام جهوري و خشن ما الذي غير من نبرة صوته؟

تنظر بصدمةٍ إلى الخباز "سردار" ، بدت صدريته الممتلئة ببقع الزيت ناصعةً على غير العادة، كان يحدق في كل الجهات ونوره يضيء أينما حلت نظراته، تقول هيلين بدهشة: ما هذا النور الذي يسطع من عينيه وأين نظارته الطبية؟ تبحث عنه لتجده في الجهة المقابلة تماماً قائلة: ما هذا الذي يحصل لي؟ ها هو "سردار" بنظارته الثخينة والصدرية المبقعة.

يمشون دون وجهة محددة، يجدون أنفسهم أمام مرآة باب الحلاق المهشمة، تنظر "هيلين" بحيرةٍ إلى نفسها عبر المرآة، تتوارى صورتها تتلاشى التعابير، لم تُدرِك شيئاً.

يمرر الصيدلي كفيه المرتجفتين يميناً و شمالاً، يتحسس بإبهامه عينيه، إنه لا يرى شيئاً، يدني دينو وجهه هو أيضاً من المرآة، إنها تعكس الفراغ ليس إلا، يعيد المحاولة أمام شظايا وقطع المرايا المهشمة والمرمية هنا وهناك، لكن دون أن يلمح حتى أي تفصيلٍ صغير. عاد دينو مرة أخرى إلى مرآة الحلاق ليتحقق من ملامحه وهيلين والخباز والصيدلي وآخرون مجهولون، بدأوا يتحسسون أجسادهم ويتبادلون أماكنهم في ذلك الحيّز أمام المرآة، حتى أصبحوا يتدافعون بهلعٍ، لكن دون جدوى، لم تعكس المرآة شيئاً سوى العدم.

(*): كاتبة من سوريا.

حسام سالم*

منطقة الأمان

Comfort zone

إنّها المرةُ العَاشِرَةُ . حَسَبَ مَا يذكرُ . خِلالَ النصفِ ساعةِ المنقضيةِ التي يفتحُ فيها حسابَهُ الخاصَ على (الفيس بوك) ليضغطَ على أيقونةِ الإشعاراتِ ثم يسحبُ بإبهامهِ شاشةَ الهاتفِ لأسفلِ حتى يقومَ بتنشيطِ الإشعاراتِ علَّها تأتيَ بجديدٍ هذهِ المرة.

هي قصتُه الأولى التي يجدُ في نفسِهِ الشجاعةَ لينشرَها على أحدِ المواقعِ التي كانت قد أعلَنَتْ . منذُ الأمسِ . عن إقامةِ مسابقةٍ في القصةِ القصيرةِ والتي يتحددُ نتائِجُها بناءً على تفاعلِ الجمهورِ معَ القصصِ المُقَدَّمَةِ.

إطْمَئَنَّ على تنسيقِ قصتِه، راجعَ حروفَ كلماتِه للمرةِ الرابعةِ أو الخامسةِ مثلاً بعدَ أن وجدَ خطأً في كلمةِ "ثانية" والتي كتَبَها في البدايةِ على هذهِ الشاكلةِ "ثاينَة" وعندَها ارتبَكَ . كما يفعلُ دوماً . وأعادَ مراجعةَ كافةِ الحروفِ، بل وأقدمَ على استدعاءِ زوجتِه كي تقرأَ ما كتبَهُ وتكتشفَ الأخطاءَ الإملائيةِ التي يجزمُ أنها موجودةً بكثرةٍ ولكن عيناهُ أصبحتَا عاجزتَين عن اكتشافِها، غير أنْ زوجتُه أشاحتْ بيدِها بينما كانت تتوجهُ للمطبخِ لإتمامِ عملٍ مَا.

تَنَهَّدَ، حاولَ طمأنةَ نفسِه أنَّ كلُ شيءٍ على ما يُرام، لعنَ في سرّهِ تلك الشروطِ التي تَقْضِيْ بضرورةِ الالتزامِ بقواعدِ النحوِ والإملاءِ وعلاماتِ الترقيمِ كما لو كانَ مطلوباً من الجميعِ أن يصبحوا فقهاءً في اللغةِ حتى يتمكنوا من دخولِ مثلَ تلك المسابقات. انصرفَ ذِهْنُهُ إلى أ. مختار مدرسِ اللغةِ العربيةِ في صفِّه الأولِ من المرحلةِ الثانويةِ، كيف كان يتأنَّى في كتابةِ أحرفِ كلماتِه فوقَ (السبورةَ) مشدداً على ضرورةِ وضوحِها ومؤكدًا على أهميةِ ضبطِ التشكيلِ فوقَ نهاياتِ الجملِ. كمْ تمنى حينَها لو أنه كان يملكُ رقمَه إذن لَهَاتَفَهُ من فورِهِ طالباً مِنْهُ مراجعةِ قصتِه قبلَ

نشرِها، لكنَّه يعلمُ جيداً أنّهُ لم يهتمْ بالاحتفاظِ برقمِ الهاتفِ حينِ التقاهُ منذُ شهرين في محطةِ المترو.

بسملَ وحوقلَ ثمَّ ضغطَ على علامةِ الإرسال.

بعد أن اكتملتْ دائرةُ التحميلِ بلونِها الأزرقِ أغمضَ عينَيْه، ليفتحَهُمَا . بعد ثوانٍ . ببطءٍ ويبدأُ في القراءةِ باعتبارِهِ شخصًاً غريبًا عَن ذلكَ الذي كتبَ القصةَ.

قصتُه بعنوانِ (قرارٌ أخير) تحكي عن ذلك الرجلِ الذي كان ينتظرُ واقفاً على محطةِ الحافلاتِ عائدًا إلى بيتِه بعدَ يومِ عملٍ طويلٍ، ليدورَ داخلَ عقلِه صراعاً حولَ كلِ ما عاشَهُ فيما مضَى، عن تلك الأمنياتِ التي حلمَ دوماً بتحقيقِها. عن تلك الأعمالِ التي بدأَها ثم توقفَ عن إنهاءِها خوفًا من تقييمِ الأخريينَ لَه، فمن وجهةِ نظرِ بطلِ القصةِ . والتي جاءتْ على لسانِه . أن العملَ الناقصَ هو عملٌ غيرُ قابلٍ للتقييم. لكنَّه . وفي تلك اللحظةِ التي يقفُ فيها منتظراً حافلةَ العودةِ . يتخذُ قراراً بالتحركِ، حتى وإن كان ذلك التحركُ يؤدي بهِ إلى قارعةِ الطريقِ وسطَ صراخِ المحيطينَ بِه.

أتمَّ قراءةَ القصةِ للمرةِ الثانيةِ شاعرًا بأسى تجاهَ بطلِ قصتِه متعجباً من أولئِك الذين يضيعون أعمارَهُم مقيَّدُينَ في حبالِ تردُّدِهِم وخوفِهم من المُضِيّ قُدُمَا. هو بالطبعِ لا يذكر الملابسات التي دفعتهُ لكتابةِ هذهِ القصة حينها، كلَ ما في الأمرِ أنه استخرجها من بين قصصهِ القديمةِ التي كتبها منذُ زمنٍ بعيدٍ دون أن يشغلَ تفكيرهُ بإطلاعِ أي شخصٍ عليها.

أخيراً، تظهرُ تلكَ الدائرةِ الحمراءِ فوقَ أيقونةِ الإشعاراتِ تحملُ الرقمَ (١). ترتجفُ شفتُه السفلَى وتتسارعُ ضرباتُ قلبِه. يُبعدُ الهاتفَ حتى امتدادِ ذراعِهِ ثمَّ يعيدُهُ

مرةً أخرَى بعدَ أن ضمَ قبضتَهُ الأخرى الفارغةَ. ببطءٍ يقتربُ من الدائرةِ ويضغطُ عليها ليتفاجئَ بأن أحداً ما قد قامَ بالتعليقِ على قصتِه. يدخلُ سريعاً على التعليقِ فيجدُ إحداهُنَّ قد كتبتْ رأيَها في القصةِ بوصفِها سخيفةً ونمطيةً ولا تقدمُ جديداً، كما أن لغتَها ركيكةٌ مفتعلةٌ لا يمكنُ بحالٍ أن تجتذبَ القارئَ.

وقبل أن يستوعبَ ما قرأَهُ منذُ لحظاتٍ، بدأتْ التعليقاتُ الأخرى في التوافدِ رداً على التعليقِ الأولِ . والذي من الواضحِ أنَّه كان إشارةَ البدءِ بالنسبةِ لها . رافضةً لذلك الرأيِ ومشيدةً بروعةِ البناءِ القصصي، وكيف أن الكاتبَ قد أبدعَ في رسمِ شخصيةِ بطله بشكلٍ أوصلَ حالةَ التردِدِ التي يمرُ بها ذلك البطلُ بكلِ وضوحٍ ودونَ فلسفةٍ لا مبررَ لَها.

تمتزجُ المشاعرُ داخلَ صدرِهِ بقوةٍ ليبرزَ من بينِها شعوراً بالغبطةِ ينعكسُ على شكلِ بريقٍ يحتلُ عينَيهِ اللتين تلتهمانِ ما كتبَ من تعليقاتٍ منحازةٍ لصفِّهِ.

بسعادةٍ لا يشُوبُها شعورٌ أخرٌ، وجدَ نفسَهُ مدفوعاً إلى تلكَ النقاطِ الثلاثِ المتجاوراتِ في الزاويةِ العلويةِ للمنشورِ ليضغطَ عليها بتأنٍّ . في الوقتِ الذي كانت زوجتُه تَعْبُرُ من أمامِه حاملةً وعاءً جمعتْ فيهِ الملابسَ التي جفتْ من فوقِ (حبلِ الغسيلِ) . ويذهبُ إلى كلمةِ "حذفْ" ويؤكدُ على ذلك الحذفِ في الرسالةِ التي طالبَته بتأكيدِ اختيارِهِ.

فورَ اختفاءِ قصته من فوقَ الشاشةِ، ألقى بهاتفِهِ المحمولِ جانباً مُتَمْتِماً بِهدوءِ "هكذا لن يتمكنَ أحدُهم من الحكمِ على عملٍ لم يعدْ موجوداً بالفعلِ."

(*): كاتب من مصر.

فتاح شيخي*

بقع حمراء في الضباب

إن الضَّبَاب قَد تَطَايَر وفي السَّماءِ الْأَخِيرَة بقع حَمْرَاء... لا أَدْري لِمَ تَأَخَّر سُقُوط اللَّيْل وَالْمَطَر غَيْرَ أَنِّي أَدْرَكْتُ أنَّ تَطَايَر الضَّبَاب كانَ سَرابا.

قُلْت لِصديقي يُونُسَ وَهُوَ يصغرني بقليل: لِمَ تَكْرَهُ الضَّبَاب؟

بِسُرْعَة أَجَابَني: «إنَّه خُدْعَةٌ» لِلْعَقْل وَالْعَيْن؛ لِذَا أحِبّ الشُّرُوق الْأَبَدِيّ.. وَفِيه أخْتَبَأ مِنْ ظُلْمَةِ الْإِنْسِ وَالْجِنّ.. لَبِس نِظَارَتَه الشَّمْسِيَّة وَأَلْقَى بِجَسَدِه فِي بِرْكَةِ مَاءٍ تُشْبِه الْبَحْر. لَمْ يَكُن الْبَحْر.. كان لحظة للطهارة.

هذا ما أوحي لي.. غير أني سألته مرة أخرى «يا يونس ألا تخاف من سراب الشموس وأنت عابدها»؟

أوَتَعْلم أن مع خيوط الشمس يلمع الماء كالذهب في الصحاري؟

أتَتِيهُ حبّاً في الشمس؟

أجابني وقد تطاير من عينه الشرر «أنا من أجل الشمس أجلد ذاتي«

وهذا حلمي ...على الأقل.. سأحلم يوماً أني أعآآآنق الشمس ليلا...

تركته وسط الضباب.. لم أعد أراه.. أو هكذا بدا لي في زحمة الرؤية.. أهو التِيه قد نال منه أم أنا الذي فقدت المسير!

لم أُطِقْ أنه يغيب وتارة شبحاً أراه.. كدت أجزم أن الضباب قد التفّ على مسارح وأزقة ودروب المدينة فكيف ألقاه؟

كان قلبي وحده دليلي وسط هذا الركام من الأسئلة. كنت أحبو على صدري نحو خيط شمس.. أجذبه يهرب مني!

أحسست ببرد ورذاذ من كتل الضباب التي تطوقني.. لوحت بيدي.. أصرخ وتعالى الصراخ يتردد صداه في الفجاج والوديان؛

فجأة أطلّت الشمس...

كان يحملها في يده وهو يصيح فرحا

لا للضباب لا للضباب لا للضباب

فأنا طلعة الشمس وديك القرية.. أدعوكم لتقديم احترامكم للشمس...

وكأن الأرض انشطرت لم أره.. لكني سمعته يحكي كما حَكَيْتُ عن الشمس والضباب عن الحب وأغاني الصباح...

(*): كاتب من المغرب.

محمد بيجو*

روحي تحترق

هل من ذكريات أقل ألماً في ذاكرتك أيها الغريب؟

لماذا لا تستطيع أن تتحدّث دون بكاء؟

. نظرتُ إلى الوراء بعد خطوات، رأيت المكان يتبعني في ذهول ويتبع بشراً يشبهونني في التعب والألم، .. قلبي الآن هناك يحترق أمام البيت.

لم نمهل المكان وقتاً ليرسم جراحه وشماً على أيادينا، بنينا له بيتاً من الأغاني والمواويل القديمة على أكتافنا ومضينا مسرعين، فبكى المكان بكل تفاصيله ولوّح بستائر النوافذ وظلال الأبواب المفتوحة أمام انكسارنا وسقوطنا، تركناه يموت وحيداً إلى مدى لا حدود له، لنضعه بين الأسماء الجميلة والخبز والماء، ونعبر الغابات بثقل أكثر.

تجاوزتُ الحدود والطلقات ترسم نجوماً من غبار ودخان ودم.

–وصلتُ متأخراً.. يقولها الغريب تاركاً نجمتين تلازمان عينيه أينما مضى، نجمتان تكبران يوماً بعد يوم.

..يبدو أنك مهما حاولت أن تترك المكان فهو لا يتركك، تكون في أوجّ حديثك مع نهر أو غابة أو بحيرة، فيأتي إليك مكانك البعيد طيفاً، ربما قرية في منطقة نائية ليس فيها ماء أو أشجار، يجعلك تتوضأ أكثر من ألف مرة لتسجد لحضوره الجميل ولا تتعب.

حنين عظيم يلفّ الجهات بعطر البيت القديم ويأخذ الروح منّي إليه الآن.

ربما كان عليّ أن لا أغادر المكان، أو كان عليّ أن أموت فيه.

مات من مات في الماء، وغطت الثلوج العيون المفتوحة على الأمل، حيث لا شيء غير القدر، وحده يعرف من منا يجب أن يموت وأين.

تاهت المراكب أو تأخرت في الوصول أو احترقت سريعا أو هي الآن تبكي على شاطئ جزيرة بعيدة مثل الحياة وحولها حبال نجاة .

هذا البحر ليس له قلب، هو يخون الغرباء... كيف نرسم ابتسامة دون حزن؟

يَقُولُ الغَرِيقُ الصَّغِيرُ:

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ البَحْرَ سَمَاء بِلَا نُجُومٍ وَبِلَا شَمْسٍ، لكنّ الهواء ثقيلٌ للغاية.. وَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أغني كما ينبغي.. رِئَتيْ سماء مليئة بالأمواج .. قلبي الشمسُ وصوتي نجوم.

نظرتكِ الأخيرة أخبرتني بأنها الأخيرة، وأخبرني المكان بأنني لن أعود ولن أصل، نظرتك الأخيرة هي الأخيرة في المكان، والمراكب الحزينة والخوف والقلق والألم والحنين والحب والغربة... كل ذلك في نظرة واحدة من عينيكِ الجميلتين.

(*): كاتب من سوريا.

حمزة الذهبي*

عندما صرت جرذا

ليلة السبت قمت بطرد القط من غرفتي وأغلقت الباب، ولسذاجتي لم أدرك أن القط الذي طردته كان يلاحق جرذا دخل إلى غرفتي مختبئا، إلا عندما أيقظني الجرذ، بعضّة أسالت الدماء من اصبع قدمي الأصغر وجعلتني أتلوّى ألما .

آنذاك وأنا تحت حَرْ الجرح، اكتشفت أني منعت القط من القيام بمهمته عبر إغلاق منافد خروجه، وسمحت للجرذ بإيقاظي من نومي متألما. تدخلي في العملية جعلني أدفع الثمن غاليا. لو تركتُ الأمور تسير كما يُراد لها لكنت لا زلت أغط في نومي العميق ولكان الجرذ من نصيب القط .

بعد أن نهضت متألما لم أتمكن من أن أمسك الجرذ، ليس لأني لم أحاول، وإنما لكوني عجزت عن القيام بذلك، من يستطيع إمساك الجرذان، يحتاج الأمر الى موهبة لم أملكها يوما. فخطر في بالي أن أنادي على القط، فهو عدو الجرذان اللدود، لهذا فتحت الباب بحذر، لأنادي عليه، لكن الجرذ اللعين، استغل تلك الفرصة وانسلَّ هاربا، ولم يسعني إلا التسليم بالهزيمة.

توجهتُ بعد ذلك، جارّا أذيال الهزيمة، والساعة تقترب من الثالثة صباحاً، نحو المطبخ، وقمت بتسخين الماء، ولما أضحى جاهزا، شرعت في غسل الجرح بالماء الساخن، ثم وضعت عليه «البوماضة الصفراء» التي بالنسبة لنا دواء كل داء .

في الصباح، أعلنتُ للأصدقاء ما حدث. لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك، وندمت لأني أخبرت جماعة الشامتين بما فعله الجرذ بإصبع قدمي. أما أمي فقد أصرّت على أني يجب أن أذهب إلى المستشفى. ولتزيد في رعبي قصّتْ عليّ قصصا لأشخاص قُطعت أصابعهم وانتقلت إليهم الأمراض المميتة والمقيتة من طاعون وجرب وجذام وداء لا يُعْرَفُ له اسم، نتيجة جرح سببته الجرذان .

عملا بنصيحة أمي، فقد وجدت نفسي يوم الاثنين في المستوصف، وعندما أعلنتُ للممرضة التي كانت تملك حقها من الجمال، أن جرذا قذرا قد عضني، صدمتني بخبر أن الحُقَن لم يبقى منها شيء، آخر حقنة انقضت يوم أمس، فعرفتُ بما لا يدع مجالا للشك أنها تريد مني أن أجود عليها ببضع دريهمات .

وضعت يدي في جيب سروالي الباهت من أثر الغسيل المتكرر، سحبت عشر دراهم، ووضعتها في يدها، فاستوتْ واقفة مع تلميحها إلى أن عشر دراهم لا تصلح لشيء، وقامت بحقن الحقنة في ذراعي.

الحقنة التي لم تكن متوفرة أضحت موجودة بقدرة قادر، فلا بد أن تُعطي لتأخذ ما هو حق لك، إنه درس قيم في زمن إعطاء الدروس .

وفي انتظار قدوم الطبيب المشرف ليوقّع لي على الورقة الطبية من أجل دفعها إلى مكان العمل تبريرا لغيابي، حكت لي الممرضة عن طفل لم يتجاوز الأربعة أسابيع تركته أمه في المنزل وذهبت عند جارتها، وبينما الأم تتجاذب الحديث مع جارتها، قضمت الجرذان أطراف الطفل. قلت لها أنّ التفكير فيما قصّت عليَّ سبّب لي الألم، وحكيت لها أنه على ذكر حكاية الطفل فقد سمعتُ أن هناك شخصاً ربطوا يديه ورجليه وقاموا بدفنه حيا، ولما عادوا في اليوم الموالي، ورفعوا غطاء القبر، تفاجئوا أن نصف جسده قد أصبح في بطن هذه المخلوقات المتوحشة.

قالت لي أنّ التفكير في هذا الأمر سبّب لها الألم. وبينما نحن نتألم طلبتُ منها أن تُعطيني رقم هاتفها، وهو ما لم ترفضه طبعا، فخلف رقم الهاتف هناك أرصدة هاتفية، ومشروبات كثيرة في مقاهي أنيقة، وسيارات أجرة لن تدفعَ ثمنها. بالرغم من أن العشرة دراهم التي أعطيتها لها لا تبشرها بخير، فهي تبوح لها بأني مجرد فقير. لكن شيء أفضل من لا شيء. وهناك آخرون، ينضافون الى هذا الفقير، يمكن أن يفعلوا أي شيء من أجل أن يسرقوا منها قبلة. فما أسهل التلاعب بالفقراء، أما الأغنياء فإن النساء في متناول اليد وما عليهم إلا أن يمدوا أيديهم ليقطفوا الفاكهة.

في النهاية جاء الطبيب، متأخرا مثل عهده دائما، وقّع على الورقة وطلب مني أن أعود مرة أخرى بعد أسبوع، لا بد من حقنتين لقتل أي عدوى محتملة. لكني لم أعد، تناسيت ذلك، أو أني فقط لم أكترث للأمر. بيد أني دفعتُ ثمن ذلك إنسانيتي. وتوفيتُ بطريقة لا أتمناها حتى لأعدائي.

فبعد مرور ثمانية أيام وبينما كنت في غرفتي جالسا على حصيرة ومتكئ بظهري على وسادة تقيني برودة الحائط وأرتشف كأس شاي بالنعناع، أحسست بالألم في كافة جسدي، وبدأ يحدث لي شيء ما أصابني بالدوار، بدأت الغرفة تتضخم، وفي انعكاس صورتي على كأس الشاي الفارغ الموضوع فوق الحصيرة، اكتشفت ان الغرفة لم تتضخم، وإنما أنا الذي تقلصت. صرت جرذاً رمادي اللون شبيه بذلك الجرذ الذي عضني. وقبل أن أفيق من هول الصدمة فتح أخي باب الغرفة. وكم أوصيته أن لا يفتح الباب قبل أن يستأذن، لكن الكلام يدخل من هذه الأذن ويخرج من الأذن الأخرى .

وما إن ولج إلى الغرفة حتى شاهدني، فانفتحت عيناه على مصراعيها، حمل فردة حذائي اليمنى الموضوعة أمام عتبة الباب وأرسلها نحوي، تحاشيتها، فحمل فردة الحذاء اليسرى وأرسلها نحوي، أصابتني هذه المرة، أغمي علي. ظن اللعين أنه قتلني، فأمسكني من ذيلي، بأطراف أصابعه، ورماني خارجا، فسقطت أنا الذي صرت جرذا في بركة ماء كانت تجمعت بسبب تساقط المطر.

هذا السقوط في الماء نزعني من غيبوبتي، فبدأت الزحف مترنحا مثل سِكّير كرع أكثر مما ينبغي فلم يعد يقدر أن يحمل جسده، وقبل أن تضربني قدم أحدهم، دخلت إلى أحد المجاري التي منذ ذلك الحين أصبحت موطني، فما إن أخرج منها صاعدا إلى أعلى حتى تتعالى الصيحات واللعنات والضربات من كل جانب، الكل يريد أن يفتك بي، الكل لا يطيقني، أضحيت مكروها، لا أحد يريد الاستماع إلى حالتي التي أعجز عن حكيها، فما بالكم أن أجد حلا لها .

لم أتقبل الأمر في البداية، أنا أسمى الكائنات وأعلاها، أتحول إلى أحقر الكائنات وأدناها، أنا المحبوب أصير منبوذا .

لكن الجرذان– **وإن كنت قد رفضتها، سواء برفضي لما تحولتُ إليه، أو بالضربات التي كانت تنالها مني وأنا في طبيعتي الإنسانية** – فقد أحاطتني من كل جانب واهتمت بي وحمتني جيداً.

وفي النهاية لم أجد بدّاً من أن أتقبل طبيعتي الحيوانية. وشيئا فشيئا بدأت أكتشف معنى أن يكون المرء جرذا. فعندما تكون جرذا معناه أنك المختار، أنك المالك الفعلي للأرض، فمن يملك الأعماق هو الذي يملك الأرض، أما من يملك السطح، فإنه سيزول بزوال السطح.

وبالتالي فذلك الاعتقاد بأن الإنسان هو سيد الأرض، هو اعتقاد خاطئ لا يؤمن به سوى الانسان .

وما أكثر الأوهام التي يؤمن بها الإنسان والتي ستكون سبب هلاكه .

ثم إن الأمر سيّان، وسواء كنت إنسانا أو جرذا، إنهم وجهان لعملة واحدة، لا يختلفان سوى في المظهر، فما أشد تشابه الإنسان بالجرذان. وقد أخبرني «حكيم الجرذان» لا تتفاجؤوا حتى في الجرذان هناك حكماء – بأسطورة غارقة في القدم، تُظهر أن الجرذان انحدرت من الانسان، فهذا الكائن الذي تراه الجرذان فتّاكاً لا يرحم، متوحشا، ويراها بنفس المنظار، هو أصلها، منه انحدرت. وهذا ما يوضح التشابه الشديد بين الانسان والجرذان.

تقول الأسطورة

في زمن سحيق، كانت هناك امرأة آية في الجمال، أجمل نساء القرية، لكن هذه المرأة الفاتنة كان لها عيب قاتل، كانت سليطة اللسان، فما إن تفتح فاهها حتى يسقط ضحاياها، لسانها الذي لا يرحم يسبب للجميع الألم.

وفي ذات ليلة ليلاء، اجتمع رجال القرية من أجل وضع حد لهذه المصيبة، فهم لا يستطيعون الابتعاد عن هذه المرأة، يجذبهم جمالها كما يجذب المغناطيس قطعة حديد صدئة، لكن لسانها، هذا السكين الذي ينهش أرواحهم، ينفرهم منها.

لهذا اتفقوا على قطع جزء من لسانها. أي إخراسها، وبهذه الطريقة سيتخلصون من إزعاجها.

وهذا ما فعلوه في النهاية، لكن المفاجأة أن ذلك الجزء المقطوع وما إن وصل الأرض حتى تحول إلى جرذ وهرب من إحدى الحفر. منذ ذلك اليوم والإنسان يخاف من الجرذان .

وبينما حكيم الجرذان يقص علي هذه الأسطورة، كنت أقول في خاطري :

ربما هذا ما يفسر كراهية الانسان للجرذ أكثر من الكائنات الأخرى، فالمرأة تكرهه لأنه يذكرها بما فقدته، والرجل يكرهه لأنه يذكره بما عاناه.

لم أكن أدرك ذلك وأنا في هيأتي الإنسانية وأرجعت سبب كراهيتي للجرذان إلى قذارتها، والجراثيم والأمراض التي تنقلها، بيد أن السبب الحقيقي يكمن في ما أخبرني به الجرذ الحكيم .

فالإنسان كما قرأت منذ زمن طويل، حينما كنتُ قارضاً للكتب قبل أن أصير قارضاً للنفايات، يرث بشكل لا واعي مخاوف أجداده. إنها تقبع عميقا في داخله عصية على التلاشي، مُعتقدا أنه يحب لأنه يحب وأنه يكره لأنه يكره، في حين أن كل ذلك ورثه عن أجداده، لهذا يُقال من خلّف لم يمت. بمعنى أن كل من الآباء والأجداد يعيشون في الأبناء والأحفاد.

**

كنت دائما عندما يتملكني الجوع، ولا أجد ما يُأكل، أذهب مع المجاري، ومن ثقب مرحاض أحد المنازل أخرج وبينما أصحاب المنزل نيام، أتناول كل ما يقع أمامي. فليس هناك شيء لا تأكله الجرذان.

وذات ليلة مشؤومة، ما إن تجاوزت المرحاض حتى اعترض طريقي قط لعين، حاولت مراوغة القط والنجاة بجلدي، لكن القط لم يتركني، تبعني في كل مكان، وما إن يمسكني حتى يتركني أهرب ليمسكني من جديد، كنت لعبته، بقينا هكذا حتى استيقظ صبي لعين في العاشرة من عمره، فوجد القط يحاصرني في زاوية المطبخ، اتّجه الصغير صوبي، وأمسكني بسهولة، وحشرني داخل صندوق خشبي صغير الحجم، لم أعرف سبب فعله ذلك، لماذا لم يقتلني، أو يرميني خارجا، وخمّنتُ أن اللعين يخطط لشيء ما.

بقيت تقريباً عشر ساعات من الزمن أو أكثر في داخل الصندوق، وبعد ذلك بدأت أسمع همهمة وصوتاً من هنا وهناك، ثم في النهاية امتدت يد وسحبتني من داخل الصندوق، لأكتشف أني في ساحة مهجورة تقع خلف حي ما، وأن هناك ما لا يقل عن عشرين صبيا، تخميني أن من أمسكني يخطط لشيء ما كان صائبا، بل حتى أني في تلك اللحظة تنبأت بما سيحدث، أَلَمْ أفعلها أنا أيضاً عندما كنت صبيا في حق العديد من المخلوقات. والآن جاء دوري لأذوق من نفس الكأس. وضع الصغير، تحت أنظار الملاعين الصغار، قنبلة – من تلك القنابل التي تباع في بعض المناسبات الاحتفالية – في مؤخرتي وقام بإشعالها بولاعة أخرجها من جيبه، ثم رماني في الهواء بعيداً، لأحلّق عاليا، قبل أن تنفجر القنبلة، لتتطاير أجزاء مني في كل مكان، وبينما كانت روح الجرذ الذي هو أنا، تتلاشى، كانت آخر أفكاره: «الجرذان وإن كانت تشبه الانسان في توحشها، فهي لن تفتك بأي أحد طلبا للمتعة والتسلية. فما أنبل الجرذان مقارنة بالإنسان".

(*): كاتب من المغرب.

نور صلاح الدين*

حياة البرزخ

أتكئ بجذعي على البناء الاسمنتي الذي يرتفع نصف متر عن الأرض وأنا أعقد ذراعيّ خلف رأسي. آخذ نفساً عميقاً.. عميقاً جداً. لا أشتمُّ أي شيء، صدري لا يعلو أبداً.. لم اعتد عليه هكذا، ساكناً.. أكرر المحاولة مجدداً، هيا يا أنفي.. يمكنك الشمُّ حتماً، لابد أن هذا المكان يعبق برائحة الطين، أو الأعشاب الرطبة، أو اللحم المتحلل، أو العظام المفتتة، أو جميعها معاً. يمكنني تخيل هذا بوضوح في عقلي، لكنني مع ذلك لا أشم. لا أدري لمَ أفتقر إلى هذه الحاسة بالذات، ما زال يمكنني لمس الأشياء، أقضي وقتاً طويلاً من يومي في تحسس سيقان أشجار الطقسوس الضخمة، ومحاولة جرح أصابعي بنتوءات لحائها وكلّي أمل في أن أرى بعض الدماء. ما زال بإمكاني أن أسمع أيضاً، صوت الرياح والطيور ومعول حافر القبور وهو يخترق الأرض الصلبة كل فترة ليفسح المجال لجثة أخرى. وبالطبع أستطيع أن أرى. أرى شواهد القبور المنتصبة أمامي والسماء الواسعة التي تشعرني بالرغبة في الانكماش أكثر وأكثر، وأرى –من حين لآخر– الزوار والمعزّين وهم يوارون أحبائهم تحت التراب، أو يبكون على من واروهم تحت التراب قبل زمن. لماذا الشمّ اذاً؟ لابد أنها الحاسة الأكثر حساسية، التي تتبخر على الفور ما إن تتوقف الدماء عن الجري في عروقك. لابد أنها حاسة عظيمة جداً وحيوية جداً بحيث لا يمكن لميتة مثلي الاحتفاظ بها في حياة البرزخ....

أذكر كل شيء تقريباً من حياتي السابقة، كل شيء عدا الأشياء التي لم تكن مهمة يوماً رغم أننا نعطيها أهمية كبيرة، كالبلد الذي أعيش فيه، اللغة التي أتحدثها والدين الذي أنتمي إليه مع ما يبدو في ذلك من تناقض. أذكر ما هو مهم للغاية، كل أولئك الذي أحببتهم، كل الأحلام التي حلمتها، كل الأخطاء التي ارتكبتها

والإنجازات التي حققتها، كل ضحكة ودمعة ولحظة امتلاء ورغبة في الموت وقطرة عرق ورائحة وطعم ورعشة وعناق حميم. أذكر كل شيء ولا يسعني الا أن اشعر بالحزن والشفقة على نفسي، والسعادة والراحة في نفس الوقت. لقد عشت حياةً ثريةً حقاً، رغم قصرها. قضيت كل لحظة فيها ممتلئة بالمشاعر والأفكار والتوهج، لقد عشت كما يجب، وكما أستحق. لا أملك شيئاً أتحسر أو أندم عليه. أنا جاهزة للعبور إلى الجانب الآخر الآن يا إلهي.. خذني!

لا؟

تباً! ظننت أن التظاهر بالاقتناع بهذا الكلام التافه الذي أسمعه في الأفلام سيجعلني أخرج من سجني. لماذا أبقى حبيسة في مقبرتي بحق الله! أين النعيم؟ أين الجحيم؟ أين العدم حتى؟ لقد مللت وأنا أتجول بين القبور ليل نهار، وحيدة وغير مرئية ولا مسموعة. أين بقية الموتى؟ كيف يعبرون إلى الحياة الأخرى من دوني! حتى أولئك الذين دُفنوا بعدي لم أرهم قط، أنا بمفردي تماماً. كنت لأشعر بالوحدة الآن، لكني على ما يبدو لم أفقد شمي فحسب، بل فقدت القدرة على الشعور أيضاً، كل ما يدور في عقلي هو أفكار وذكريات ورغبات مبهمة ربما، لم يبق لي من المشاعر سوى البدائية منها كالخوف أحياناً والخواء على الدوام. مرّرت يدي ببطء على سطح القبر المجاور لقبري، كانت تغطيه طبقة من الغبار وبعض الحصى الصغيرة. قبرانا هما الوحيدان اللذان يملكان أساساً اسمنتياً يرتفع عن سطح الأرض فيما دفن بقية الميتين في هذه المنطقة الريفية تحت الأرض فحسب، وبشواهد من صخر حُفرت عليها أسمائهم وتواريخ ميلادهم وموتهم بصعوبة. أما نحن، أنا وساكن هذا القبر، فإنا مختلفين. كلانا كان بطلاً قومياً، كلانا التحق بجيش البلاد ومات حاملاً راية ما في جبهة حرب ما. تُزيّن قبرينا الأعلام الملونة وأوسمة الشرف وتتكدس عند قاعدتيهما زهور الأقحوان والفوانيا والقرنفل والخشخاش وعباد الشمس

التي يتم تجديدها وتبديلها باستمرار. أعرف أسمائها كلها وإلى ماذا ترمز بالضبط لأنني كنت اختارها بنفسي في السابق لأضعها بعناية عند قبر جاري هذا بالذات. هنا حيث يرقد مثلي الأعلى، هنا حيث يرقد أخي الأكبر...

تجمعت الغازات فجأة لتصنع ضباباً كثيفاً أخضر اللون يغلّف المقبرة كل ليلة عندما يغادر حافر القبور إلى بيته. لا أدري ما السبب في هذا فلا شيء يحدث على الاطلاق طوال الليل، وعندما توشك الشمس على الإشراق يعود الضباب لينقشع مرة واحدة أمام عينيّ. كان هذا يخيفني كثيراً في السابق، أذكر أول ليلة لي هنا وكيف أمضيتها كلها في البكاء والارتجاف والطرق بقوة على قبر أخي كما لو أنني أحاول استدعائه. وعندما هبط عليّ هذا الضباب الأخضر المقرف من اللامكان شعرت بقلبي يسقط في معدتي وأنفاسي تضطرب رغم أني لا أتنفس. ما زلت خائفة في الواقع، لا أنكر ذلك، ولكن لسبب مختلف تماماً.. أنا في الحقيقة لا أشعر أني ميتة على الاطلاق، وهذا يخيفني. أفكر دائماً بأن هذه المرحلة من "حياتي" ستنتهي قريباً وسأعود للعيش بنفس الطريقة. سأرى أمي وأبي وخطيبي وأصدقائي ورئيس الفرقة ١٧ الغاضب. سأقضي بضعة أيام في المشفى لأعالج جراحي ثم أعود لأحمل السلاح وأدافع عن سيادة بلادي في مكان ما من العالم، بعد أن اطبع قبلة على جبين أمي وأخبرها انني سأكون على ما يرام، وأنها وأبي لن يضطرا لدفن طفل آخر من أطفالهما مبكراً. ثم وبعد بضع سنين من العمل الجيد سأترقى إلى منصب أقل خطورة واستهلاكاً، وسآخذ إجازة طويلة لأتزوج من الرجل الذي أحبه وأنجب طفلاً واحداً فقط أسميه تيمناً بأخي العزيز حتى وإن كان فتاة، فاسم " تشارلي" يليق بالجنسين. ما رأيك بهذا يا تشارلي؟

انظر إلى القبر الاصم ايهما تفضل؟ ولداً أم بنتاً؟

استلقيت على قبري وأغمضت عينيّ بعد أن تأكدت من أن أخي لن ينهض من مرقده هذه الليلة ايضاً. لا أستطيع النوم بالطبع لكنني أحاول فعلها دائماً، أيّ شيء يثبت لي أنني ما زلت حية، أنني سأعود قريباً. تمكنت ذات مرة من تغييب وعيي قليلاً، للحظات فقط. شعرت أنني نمت حقاً. أتعرف ذلك الشعور؟ عندما تكون جالساً تذاكر مثلاً، ولا تكتشف أنك غططت في النوم إلا عندما تستيقظ لتجد أن رأسك فارغ تماماً لوهلة، ثم تبدأ المعلومات المشابهة لـ: من أنت؟ وماذا تفعل؟ بالوفود إليه. عندما مررت بهذه التجربة شككت في أنني ربما أكون – في أحسن الأحوال– حية بشكل أو بآخر. في غيبوبة مثلاً؟ هذا سخيف، أنا أعلم. لست جاهلة بالفيزيولوجيا لأنكر أن قلبي غير النابض وجلدي الشاحب المتجمد ورئتاي اللتان لا تمتلآ بالهواء أبداً خير دليل على أنني ميتة لا محالة. لست جاهلة، ولكني فقط محبطة. لماذا وصل بي الأمر الى هنا؟ أيعقل أنني انتهيت هكذا! جندية عشرينية واعدة قضت نحبها على يد المتطرفين بعد بضع جولات من التعذيب والاغتصاب. هذا سيء، سيء ولا يليق بي. لا يليق بكل تلك الأحلام التي حلمتها والأهداف التي نصبتها والحياة التي رسمتها لنفسي.

اوه.. اوه ..ما هذا ! ما هذا الذي يحدث!

تكوم الضباب حولي ليغطيني بالكامل، لم أعد أستطيع ان أرى الأفق ولا أصابع يديّ. شعرت به يلفني ككيان بأذرع عريضة ويجذبني بقوة إلى صدر واسع. أخذت نفساً عميقاً رغماً عني ولم أتصور قط أنني سأشم هذه المرة. شممت رائحة لم أصادفها من قبل أبداً في عالم الأحياء وأنا أدرك لماذا. شيء بهذه العفونة لا يمكن أن يوجد بجوار كائن يحتاج التنفس لينجو. أغلقت أنفي وفمي بيدي ولكن لا فائدة، لقد تغلغل هذا العطر المرعب إلى جيوبي الأنفية ومحجريّ وحلقي وثنايا عقلي، لا فكاك منه الآن. أنه يثيرني ويسيطر عليّ بشدة كما لم تفعل الغازات السامة والمسيلة

للدموع، وغازات الضحك وغازات الأعصاب ورائحة الأجساد المحترقة، والكبريت والجاز والبارود وكل بخار قوي استنشقته من قبل. سحقاً إنه أسوأ منهم مجتمعين! والشيء الوحيد الأسوأ منه هو ما جلبه إلى داخلي معه. شعور فظيع شعرت به وأنا التي لم أشعر بالأشياء حقاً منذ أن مت. مزيج مجنون من الحزن والجزع والكراهية الخالصة، كلها كانت مترسبة في قلبي لحظة موتي وقد خرجت إلى السطح الآن، كل هذا الألم والعجز والمشاعر المقيتة. يا الهي! هل كانت ذكرياتي حقاً بهذا السوء؟ هل كانت حياتي بهذا السوء؟ آخر يوم لي كان سيئاً بالفعل، كنت ملقاة على أرضية زنزانة في إحدى معتقلات العدو. كانت كل بقعة في جسدي تنضح من الألم عندما فرغ مني الضباط المتوحشون وغادروا المكان الذي يعج برائحة البول والعطن والدماء المتخثرة.. دمائي المتخثرة. كان النصف الأسفل من جسدي قد شل أخيراً وتوقفت الأعصاب هناك عن نقل الإشارات ليُغْمى عليّ بعد ساعات طويلة قضيتها أتلوى من الألم. لم أكن أسمع شيئاً، كان المعتقل فارغاً كالصحراء، أو كعقلي المرهق في تلك اللحظة. كل ما تناهى لسمعي كان صوت نباح بعيد وصرخات تدوّي وتخفت في نفس الثانية قبل أن يدرك أحد أنها غادرت حناجر أصحابها. كان جسدي شبه عارٍ بعد أن تكبد أحد أحدهم عناء وضع ملاءة بالية على ظهري ومؤخرتي، كنت مستلقية على بطني ووجهي إلى الأرض. رأسي يقبع أسفل قاعدة المرحاض المسدود وأنفي يتشمم رغماً عني وعنه كل رائحة قذرة ممكنة. لم أستطع النهوض، لم أستطع الكلام، وبعد لحظات قليلة لم أستطع التنفس. كان آخر يوم لي في العالم فظيعاً، ولكن ماذا عن بقية الأيام؟

آه! آه! إنها فظيعة أيضاً! كلها سيئة. سلسلة طويلة من المعاناة يتخللها هزل هو الجد، وابتسامة مغموسة في الكدر، وفكاهة هي النكد بعينه. لا سعادة إلا بمقدار حبة خردل، ولا راحة إلا بمقدار سويعات في عمر كامل من العناء. هل كانت

الأمور لتختلف لو لم انضم إلى الجيش اقتداء بأخي؟ لو بقيت في المزرعة مع والديّ، أجمع المحصول وأرش الحقل وأضع الفتات في قنّ الدجاج. لو لم أرَ المدينة المكتظة، لو لم اختبر التدريبات العسكرية القاسية، لو لم أجرب هول الحروب، هل كانت حياتي لتختلف؟! لا.. بالطبع لا. كنت سأشعر بأنني فاشلة وبلا قيمة، وربما قتلت نفسي عقاباً لها. كل الخيارات التي كانت أمامي سيئة رغم أني ربما أكون اخترت أسوأها. لم يكن هناك مفر من العذاب، لكنني فررت.. لقد مت! حمداً للإله على هذا. ورغم سعادتي الخفية بحقيقة موتي إلا أنني أحبذ لو لم أولد من الأساس....

انبلج الصباح وتسربت خيوط الشمس الذهبية إلى مقبرتي العزيزة لتفتت الضباب الأخضر وتعيده إلى العدم الذي أتى منه. مرّت الساعات الأولى دون حدث يذكر كما تمر كل الساعات هنا اساساً. لكن قبيل الظهر بقليل توقفت شاحنة حمراء كبيرة محملة بعلف الحيوانات أمام بوابة المقبرة وترجل عنها زوجان في منتصف العمر. كانت المرأة ترتدي وشاحاً قماشياً ملوناً حول عنقها ومؤخرة رأسها، وسروالاً قطنياً واسعاً، وتحمل بين يديها باقة زهور صفراء حديثة القطف. تقدمت الرجل بخطوات سريعة بينما كان منشغلاً بتناول شيء ما من داخل السيارة. بركت على الأرض أمام قبري بعد أن وضعت الأزهار هناك ثم شرعت تبكي بصوت خفيض وهي تضم يديها الخشنتين إلى صدرها. اقترب الرجل حاملاً باقة زهور أخرى باللون الأزرق الغامق، اللون الذي يحبه تشارلي. نزع قبعة القش من رأسه وتوقف بعيداً عن المرأة. كان ينظر نحوي بنظرات عميقة ثاقبة حتى ظننت أنه يراني، لكن تبين أنه كان ساهماً في شجرة الطقسوس الضخمة التي كاد يجتثها في شبابه ليصنع من ساقها حطباً للمدفأة. لكنه تراجع عن الفكرة لشيوع خرافة تقول أن الشجرة هذه هي ملاذ الميتين الأخير. ها هي ذي قد كبرت وازدانت بالتغذي على رفات كل هؤلاء.. على رفات

طفليه العزيزين. اقترب وجلس جوار امرأته حانياً ظهره، مطلقاً العنان لدموعه الحبيسة. أمي.. أبي، لا تبكياني وتشارلي، كلانا على ما يرام. ابكيا نفسيكما فأنتما الأحياء، أنتما اللذان لم تمتلأ أقداحهما بعد بما يكفي من المعاناة.

جلست الى جوارهما وأنا قابضة على ذراع أمي. لم تكن تحس بي بالطبع لكني أحس بها، كرد فعل من دون فعل. كنت أتلمس بشرتها القمحية المجعدة عندما سحبت يدها فجأة لتمسح الدموع التي أغرقت وجهها النحيل. بقيت إلى جوارهما هكذا وكنا ثلاثتنا نطالع قبر تشارلي بحزن ورياح باردة تهب علينا من جهة الشمال، كان نسيمها الريفي المنعش محملاً برائحة ماء النهر والقمح والسماد العضوي، بالإضافة الى الأريج الذي يتصاعد من الأنواع المختلفة من الزهور أمامنا. أخذت نفساً عميقاً وعبأت صدري بعطر الطبيعة الفواح، كم هو رائع أن أشم مجدداً! أنا أدرك أن الطبيعة خلابة، أن المخلوقات بأكملها مذهلة وأن الكون معجزة حقيقية. لكن كل هذا الجمال لا يكفيني، لا يرضيني، لا ينسيني ما رأيت وما اختبرت ولا يجعلني –بأي شكل كان– ممتنة لوجودي. موتي كان خطوة كبيرة في الطريق الصحيح وكل ما تبقى الآن هو أن أصير من العدم.

انتهت الزيارة المفعمة بالحنين وعاد المزارعان إلى بيتهما وحقلهما وبقيت أنا أتجول كعادتي بين القبور في انتظار شعاع أو نور أو ملاك اتبعه فيأخذني إلى مثواي الأخير. لم أظن أن انتظاري سيطول كثيراً ولكنه دام ثلاثة عشر ليلة كاملة رأيت بعدها ذلك النور، فتبعته. كان يُطل عليّ من خلف الضباب الأخضر مشعاً واضحاً ومرحّباً بي. هرولت نحوه بشوق قد تخليت عن حماية أنفي من رائحة الضباب، ها هو ذا خلاصي، إنني أراه. تشارلي.. تشارلي هل أنت هناك؟ هل تنتظرني هناك؟ جذبني الضوء بطريقة غريبة. لم أكن بالمادية التي ظننتها، بل كنت أقرب الى بخار يتم استنشاقه من قبل نور شاسع!

على أيّ حال. أظنني دخلت عالم الآخرة الحقيقي. مكان مختلف عن المقبرة تماماً، مظلم وضيق، لا شيء فيه سوى اللون الأسود الداكن. لم تكن هناك رائحة معينة ولا صوت يسمع. شعرت بضيق شديد، وبأن جدراناً خيالية تطبق على جسدي، وأن جسدي هذا ضخم جداً مقارنة بالمكان الذي أُقحمَ فيه. نور آخر التمع في نهاية النفق لكني لا أستطيع الحراك. دفعتني الجدران الخيالية بقوة تجاهه كأنها تعترض على وصفي لها بالخيالية، إنها حقيقية تماماً. سمعت صوتاً أنثوياً خافتاً ما لبث أن ارتفع بالصراخ، يا الهي! أنه الجحيم.. سأرسل إلى الجحيم مع الخاطئين. لا أريد ذلك.. لا! دفعة أخرى قوية من الجدران وتزداد الصرخات، يمكنني الشم الآن، رائحة خفيفة ولكنها موجودة، هناك عرق و دماء وشيء أشبه بالمعقمات الطبية. أين أنا بحق الله! تمر دقائق طويلة عليّ وعلى المرأة الصارخة، دقائق من الادراك والفهم العميق لحقيقة هذا العالم، دقائق معدودة من الوعي بمأساة العود الأبدي، وكراهية الوجود، وتمني العدم. دقائق تتخللها ألف لعنة ولعنة أطلقها في الظلمات، وأنا أحاول أن أخنق نفسي بالحبل الذي وجدته دون فائدة. تمر الدقائق ثم.. ثم أولد!

(*): كاتبة من السودان.

فتحي البوكاري*

وللمهمشين نصيبهم من الحياة

عند بزوغ فجر هذا اليوم الصيفي، الذي ظهرت فيه سحابة رماديّة موحشة ورياح هائجة مزعجة اهتزّت لها الأرض غبارا وأتربة، ابتعد "مصطفى حليلة" مسافة طويلة عن الحيّ الذي يقطنه في منطقة سيدي حسين وتوقفّ في إحدى الطرقات الفرعية على أطراف سبخة السيجومي، حيث لاحت له الطريق السيّارة المؤدّية لأحياء المروج وبن عروس كحزام يطوّق البحيّرة ويحتضن أسراب طيور النُّحَام الورديّ المهاجرة.

التفت "مصطفى حليلة" يمنة ويسرة ولمّا تأكّد من خلوّ الطريق من النّاس سحب الكمّامة من جيب سرواله، ووضعها قناعا على وجهه لإخفاء ملامحه وسحب كيس قمامة عملاقة من جيبه الخلفي ثمّ واصل سيره إلى غايته.

انطلق كمقاتل النينجا مع حافة الطريق السيّارة، متدثرا بثوبه الفضفاض، متنقّلا من حاشية إلى أخرى يجمع قوارير البلاستيك التي ألقاها أصحابها من نوافذ سيّاراتهم المرفهة بعد أن أفرغوا ما فيها في بطونهم الضخمة، يضغط عليها بكفّي يديه ككلاّب متين لتقليص حجمها ويقذف بها مكوّرة في الكيس الأسود، ثمّ يرفع الحِمل كلّه إلى ظهره، ويواصل سيره بحثا عن المزيد.

قبل أن يبلغ محطّة شال المشيّدة حديثا، انحاز إلى جهة اليسار، مبتعدا عن المحطّة وهو يتظاهر بالتفرّج على طيور الفلامينغو الورديّة وأسراب البطّ والغرنوق تسبح بالقرب من منفذ لمياه الصرف الصحّي وتقتات من النفايات المنزليّة.

قال متفكّرا: "من أجل هذه النفايات في المنطقة الرطبة تجيء الطيور من عمق القارات لتعشّش هنا وتتكاثر، ومن أجلها يأتيها "سطوفة" من ظلمة الأحياء ليوفّر ما يجابه به المصاريف اليوميّة لأسرته. فيا ترى ما نوع النفايات التي يحرق إليها أنداده في البلدان الغربيّة؟ ولأيّ سبب؟"

لم يكن "مصطفى حليلة" متقدّما في السنّ كأغلب "البرباشة" الناشطين في جمع العلب البلاستيكيّة الفارغة، فقد كان ذا قوّة وفتوّة، في العقد الثالث من عمره، مارس في

صغره مهناً شتّى، كان آخرها العمل، لسنوات طويلة، بمعمل الكابل وصناعة ملحقات السيّارات المنتصب على الطريق الموازية الرابطة بين سيدي حسين وفوشانة، خلف محطّة شال مباشرة.

أكثر من عشر سنوات قضّاها عاملا هناك قبل أن يتمّ الاستغناء عن خدماته بسبب جائحة كورونا، فلا يمكن لأيّ مؤسّسة صناعيّة مُصدّرة أن تستمرّ في توفير أجور عمّالها تحت وطأة قرارات الحجر الصحّي الشامل التي تفرض عليها الغلق لأسابيع متكررة.

كان زملاؤه في العمل يلقّبونه بـ"سطوفة الباهي" لوسامته ورفعة أخلاقه، حتّى زوجته "مفيدة"، التي تعرّف عليها هناك في المعمل، كانت تناديه بهذا اللقب. كانا قد تآلفا فحملها، بعد أشهر قليلة، زوجة إلى بيت مكترى، في أفقر حيّ سكني على ساحل البحيرة المغلقة الذي ارتفع فيها منسوب الترسبات فلم تعد قادرة على استيعاب أمطار الفيضانات، فعادت المياه مرتدّة لتغمر الأحياء كلّ شتاء، وتلوّث محيط المنزل الذي أثّثته "مفيدة" بالكمبيالات.

تشبه هذه الطريق الصراط، إذا عبره "سطوفة" إلى ما بعد مجمّعات الخردة وأطنان هياكل السيّارات وبقايا الأجهزة المنزليّة الصدئة، ابتعد عن الروائح الكريهة وأسراب الذباب والبعوض، وإذا ما قلّب نظره على الصراط وجده يفصل ما بين مظاهر العمران والبداوة. فإذا صرف بصره إلى اليمين شاهد بقايا عمليات البناء والردم تقرض الهكتارات المتبقّية من مساحة ملاذ الطيور الآمن وتتوسّع الأحياء السكنيّة على حسابها، وإذا صرف بصره ناحية الشمال رأى حوضا مائيا بديعا وجزرا صغيرة متناثرة ومساحات عشبيّة كأنّها بادية قد حطّت عليها، يوما ما، مضارب البدو، خيام من الأسمال البالية، وأقيمت عليها مواقد نيرانهم.

قبل أيّام، كان "سطوفة" يرى إبلهم ومواشيهم ترعى هناك قرب المراح. والقوم على جانب الطريق معصوبيّ الرؤوس يقفون، كفزّاعة الطيور، رافعين أيديهم بحليب الإبل

والأغنام للمارّة، وها هم قد انتزعوا أوتاد خيامهم حملوها مكوّمة في الصناديق الخلفيّة لسيّاراتهم الديماكس وارتحلوا إلى أرض محصودة.

بعد أن تجاوز مركز الحراسة لإدارة الغابات المواجه لمفترق طرق دائري، نزل "سطوفة" إلى ضفّة السبخة مبتعدا عن الطريق، فبدت لعينيه مبرك الجِمال، وآثار الأوتاد التي كانت فيما مضى تشدّ الخيام وتثبّت ركائزها، وشاهد رماد قدورهم تفيض على الأثافي. انحنى "سطوفة" على المناصب الحجرية الثلاث وأزاح عن جانبها قطع الأغصان اليابسة التي غطّى بها عربة الأطفال الخفيفة بعد أن طواها لإخفائها عن الأنظار، أخرجها وأعادها واقفة على عجلاتها، ثمّ جرّها إلى الطريق، ومشى منهكا يدفع العربة الصغيرة أمامه رغم أنّه ما يزال في بداية يومه وأمامه مسافة طويلة ليقطعها.

كانت العربة وسيلته في حمل أثقل ما يمكن جمعه، كان يتركها قريبا من هنا، ثمّ يعود إليها بالحِمل الذي على ظهره ليضع الكيس على مقعدها كأنّه طفل صغير نائم، وفي المساء، بعد أن يبيع محصوله إلى نقطة التجميع في شارع البيئة بالزهور الرابع، يعيدها إلى مستودعها الخفيّ، وينحدر خفيفا إلى بيته، سعيدا بالمردود المالي اليومي الذي كسبه.

كانت أجرته الشهرية تعادل أو تفوق ما كان يكسبه في معمل الكابل قبل أن يتخفف المصنع منه. ليس فقط لأنّ نقطة التجميع التي يبيعها "سطوفة" حصاد يومه، سخيّة جدّا معه، إذ تقدّم له سعرا تفاضليا أعلى من الثمن الذي حدّدته الوكالة الوطنيّة للتصرّف في النفايات للكيلوغرام الواحد، بل أيضا بفضل حمّالة "الرزن" هذه التي عثر عليها ذات يوم في مصبّ للنفايات مع أشياء أخرى جديدة لم يتوقّع من أيّ عاقل أن يرمي بمثلها في المهملات.

يومها وجد مع العربة أثاث غرفة نوم كاملة، سريرا مزدوجا من خشب الزان الأحمر مفكّك الهيكل، إلى جانب عدّة أشياء أخرى، فراش طبّي ووسادتين وأغطية فراش مطرّزة وعدد كبير من أغطية مخدّات من القماش المطرّز، وملابس نسوية ومصابيح إلكترونية ولوحات تشكيلية في أطرها، وصندوق مجوهرات، بالإضافة إلى مثلث تحذير ما يزال في

قرطاسه، وقطع غيار سيّارة صالحة للاستعمال وكتب فيزياء وغيرها. ولأنّ الوضع الصحّي كان آنذاك استثنائيا، يعيش فيها البلد حالة من الرعب بسبب جائحة الوباء في موجتها الأولى، رغم أنّ الإصابات كانت وقتها قليلة تعدّ بالأصابع، والتخاطب مع النّاس يتمّ من وراء حجب، وأحيانا بواسطة الروبوت، فقد خمّن "سطوفة" أنّ صاحب هذه الأشياء هو أول ضحايا الفيروس القاتل، عجّل أعوان الفرق الصحّيّة بالتخلّص من جثّته بوضعها في كيس بلاستيكي ورميها في حفرة دون وداع، وعجّل أهلها بالتخلّص من أدباشها الملوّثة بأنفاسه لتجنّب انتقال العدوى.

ارتجفت يداه وهو يتذكّر كيف قلّب تلك الأشياء الموبوءة دون خوف، وضع ذات الأحجام الصغيرة في سلّة تخزين العربة تحت المقعد، وراكم بعضها فوق بعض على المقعد، ولمّا كان على وشك أن يتحرّك من مكانه ويدفع العربة إلى الطريق، توقّفت بجانبه شاحنة ثقيلة وسأله سائقها إن كان لا يرغب في الحشيّة، فهو يحتاجها عندما يجبر على التوقّف لاستراحة تمنع عليه النوم على مقود القيادة. أشار له "سطوفة" بأخذها وابتعد.

دفن الغنيمة في إحدى زوايا البيت قبل قدوم زوجته من المعمل، لم يستخرجها إلاّ بعد مرور ساعات ظنّها مدّة كافية للقضاء على الفيروس دون تعقيم، ولم يخبر "مفيدة" عن مصدرها إلاّ تلميحا، قال: "في زمن قبيل الكورونا، كانت ممتلكات الميّت، باستثناء الملابس، تغري القريب وتصنع الضغائن، اليوم، نفثة الخوف من المجهول جعلت الأسر تفرّط في إرثها للمهمشين."، ولم يزد، ولم تُعقّب على ما قاله، ربّما لأنّها لم تسمعه. كانت منشغلة بتقليب قشرة مخدّة في يدها، وكانت أصابعه المدرّبة تخرق العربة لتذهب عنها الأطماع، قطع حزام أمانها المبطّن الذي يثبّت الطفل ويمنعه من الانزلاق، وأتلف مظلّتها الواقية. أحزنه أن يفعل ذلك، لكن لكل غرض صورة خاصة تلائمه.

(*): كاتب من تونس.

شيماء اليوسف*

اعترافات امرأة أربعينية في محطة قطار

لا شيء أجمل من نكهة القهوة وذوبان سهاد الليل فوق شفاه فنجانها، فمعها أحتفل خارج كوكبي، وأبحث مع رشفتها عن حب، حب يعيدني طفلة، تستحيل جِنّية في الستة أعوام الأولى من عمرها، حب يترقرق كالندى من سقف غرفتي معلناً طلوع الفجر، فيهرب معي لذكراه العذبة كأيقونة أسطورية، ثم تنحني أشعاري على حافة طريق صنع خصيصاً من أجله وهناك أنتظره وأراقب قدوم خطواته نحو زاوية المقهى.

مضت ساعة وأنا في انتظاره بمفردي في المساحات الباردة الواسعة، لم يأت بعد، الأشواق مترجمة حولي بكل لغات العالم، حتى أنها تدلت من فوق ستائر الصقيع، ألاحظ معطفي يرتعش برداً، طوال جلوسي البعيد على مقهى محطة القطار، وأنا أرتشف قهوتي العربية بابتسامة مقنعة ولن أغادر حتى تدق أجراس قدميه ساحة مجلسي.

مضت الساعة الثانية وها أنا لا زلت أنتظر، لم يمر عطره نحوي، وبدأت عيناي تمتلئ بأدمع الحنين وأعاصير البرق تحتضنني ولجواري رجل ينتظر هو الآخر حبيبته وكأننا ولدنا معاً في الزمن الخطأ.

الريح تعصفني ورائحة الشوق تتبدد مع الغمامات والانتظار طال يجول حول مراكب قهري، خمس ساعات وأنا كطائر ضليل يترنح على أرجوحة الوقت ولي عش في هواه معلق، لكن أتعبني الانتظار لذلك سوف أغادر وأترك له برقية اعتذار عن مجيئه وأمضي وحدي على قدمين منكسرتين كما فؤادي.

صفير القطارات يرافق قلبي الصغير، ها قد غادر القطار المعطل منذ مجيئي حتى أن الشمس نفسها تودع السماء، النهار يرحل ويستعد المساء للخروج، الشوارع باردة دون دفء، وجسدي وحيد يرتعش دون دفئك.

عبر درجات سلم المحطة يقف عجوز ضعيف متكئ على عكاز أصم، عيناه هارب منهما النور، على ظهره تتمايل أعباء الدهر، فلا يستطيع الوقوف معتدلا ومستنقعات اللا مسؤولية تخذله، يشير بيديه للمارة دون صوت عسى أن يلتقمه أحد من هؤلاء فيعبر به

حيث الرصيف الآخر، ويرحل من مدينة بلا أحبة، المُحبّون فيها يخلفون الوعود لبلاد مثلها.

المُحبّون يهرولون حول قلبه الجريح دون أن يلاحظ جرحه أحد، لا أعرف ماذا حدث لهم، هل قسوة الشتاء تأخذهم وتغطي بصائر الحياة في أرواحهم، تقتل الشفقة في أعينهم، ماذا بهم يا ترى، لم أشعر إلا ويدي تعانق يداه فأدركت حاجته لي وحاجتي له وكأن أرواحنا المنكسرة تعانقت معاً في آن واحد.

مضينا سوياً نحو درجات سلم المحطة ويد العجوز تعانق يدي بخوف، ترتجف وكأنها قذيفة من الرعب في مجرة نائية تائهة داخل مدارات ماض سحيق، وقبل أن ننتهي التقفته يد شخص ملثم، عيناه تشبه عيون الغالي، وحمل العجوز بين ذراعيه والعكاز سقط على الأرض، أمسكت به جيداً حتى لا يسقط من جديد ولحقت بهم إلى حيث الرصيف الآخر من المحطة، ها قد وصل القطار فأخذ العجوز مقعده في إحدى العربات ودقائق قصيرة ثم انصرف.

بقيت وحدي مجدداً لكن الغريب المتخفي ينظر لي بعشق، عجيب تحيط به الدهشة من كل ناحية لكنه ساقط في كومة من الصوف لا تبدو لي ملامحه واضحة لكنني أظن أنه يعرفني وأعرفه جيداً، لم أشعر بنفسي إلا ويديه حول خصري أنفاسه على مقربة من أنفاسي، وكشف عن وجهه، يعتذر لي عن تأخره، شعرت بالحيرة والسعادة والتراجع وحاجتي للعناق الدافئ، بكيت بكل قوتي كانت يديه تمسح دموعي النادرة وشفتاه تقبل جبهتي ثم انفكت عُقَد شعري على كتفيه وهو يضمني باشتياق ولم يكن بوسعي إلا أن أقول له: كان انتظارك رحلة شوق مليئة بالوهن لكنني لا أملك إلا حبك لا تَغِب.

(*): كاتبة من مصر.

جسدُ السرد.. قصص قصيرة

كتاب قناص الرقمي

eBooK
2024 (2)